شِعْرُ السُّلَيْك بنِ السُّلَكَة

(دراسة بلاغية)

إعداد

دكتور/ وائل عبد الله عبد السلام محمود

مدرس البلاغة والنقد في جامعة الأزهر

شِعْرُ السُّلَيْك بنِ السُّلَكَة
(دراسة بلاغية)

وائل عبد الله عبد السلام محمود.
قسم البلاغة والنقد – كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالشرقية – جامعة الأزهر – جمهورية مصر العربية.
البريد الإلكتروني: WaelMahmoud.sha.b@azhar.edu.eg

ملخص

عانى الصَّعَاليك من تنكّر الناس لهم؛ لفقرهم وضعة نسبهم وسواد بشرتهم، فعاشوا بعيداً عن البيئات المستقرَّة، وانضم بعضهم لبعضٍ، وكونوا مجتمعاً موازياً، واعتمد بعضهم على بعضٍ في السطو والنهب؛ لتوفير المال وما يحتاجونه لتستمر الحياة، وكان معهم نساء؛ لأن الحياة بدون المرأة مستحيلة لا تكون. وكان من بين الصَّعَاليك شعراء موهوبون في فنون القول وفصاحته، وكان وجود أولئك الموهوبين نعمة على اللغة العربية؛ لأنهم أسهموا بأشعارهم في بيان فصاحة اللغة، وكشفوا أدقّ خصائص بيئة الصَّعَاليك الخفيّة البعيدة عن المجتمعات المستقرّة، ينفس الشاعر عن أوجاعه وآلامه، فيفخر بنهابه، ويصف ما قام به في رحلته وصفاً دقيقاً، من الترقب لأصحاب المال وقتلهم والحصول على النهاب والانصراف بها، ووصف السلاح والخيل التي يكون بها السطو، وما يكون بين القائد ومن يتبعونه في رحلتهم، ويضاف إلى ذلك الحديث عن المرأة وكيفية ارتباطها بالرجل. ويعدّ شعر السُّلَيْك حلقة مهمة تُضَمُّ إلى أشعار غيره من الصَّعَاليك الموهوبين في فصاحة القول وفنونه، كالشَّنْفَرَى، وعُرْوَة بن الوَرْد، وتَأَبَطَ شَرًّا. وقد ظهرت اللغة على ألسنتهم فتيةً قويةً، لم يؤثر فيها الخلل الاجتماعي والحرمان الذي عانى منه الصَّعَاليك. كما ظهر من شعر السُّلَيْك متابعته

لغيره من الشعراء الذين نقل عنهم كامرئ القيس. وتعددت روايات شعره، وهذا دليل على انتشارها بين قبائل العرب ودورانها على الألسنة، فتتأثر بقوة حفظ الناقلين لها، وسبيل التمييز بين الروايات المختلفة الموازنة بينها، كما أن الوقوف على الأسرار التي يفيض بها شعر الصَّعَاليك لا يكون إلا من خلال دراسة التراكيب.

كلمات مفتاحية: شعر – السُّلَيْك – ابن السلكة – دراسة – بلاغية.

Poetry of Al-Sulaik Ibn Al-solka (rhetorical study)

Wael Abdullah Abdel Salam Mahmoud.
Department of Rhetoric and Criticism - College of Islamic and Arab Studies for Boys in Sharqia - Al-Azhar University - The Egyptian Arabic Republic.
Email: WaelMahmoud.sha.b@azhar.edu.eg

Abstract
Tramps suffered from people disguising them; Because of their poverty the status of their lineage and the blackness of their skin, they lived from stable environments, and some of them joined together and formed a parallel society, and some of them relied on each other for robbery and plundering. To provide money and what they needed to continue life, and they had women with them; Because life without a woman is impossible. Among the vagabonds were poets gifted in the arts of speech and its eloquence, the presence of these talented people was a blessing for the Arabic language. Because they contributed with their poetry in demonstrating the eloquence of the language, and revealed the most minute characteristics of the hidden environment of the tramps, far from settled societies. The poet vents his pain and pain, is proud of his plundering, and describes what he did on his journey in an accurate manner, from anticipating the owners of money and killing them, obtaining the plunder and leaving with it, and describing weapons. And the horses used for robbery, and what happens between the leader and those who follow him on their journey, and in addition to that there is talk about women and how they relate to men. Al-Sulaik's poetry is an important link that joins the poetry of other brats gifted with eloquence and arts, such as Al-Shanfra, Urwa ibn

Al-Ward, and Tabata Sharran. The language on their tongues appeared young and strong, and was not affected by the social imbalance and deprivation that the vagabonds suffered from. It also appeared from Al-Sulaik's poetry that he followed other poets from whom he quoted, such as Imru' al-Qais. There were many narrations of his poetry, and this is evidence of its spread among the Arab tribes and its circulation on the tongues. It is influenced by the strength of the transmitters' preservation of it. The way to distinguish between the different narrations is to balance them, just as identifying the secrets that the poetry of tramps overflows is not possible. It is only through studying the compositions.

Keywords: poetry - Al-Sulaik - Ibn Al-solka - study - rhetoric.

مقدمة

السُّلَيْك بن السُّلَكة شاعر جاهلي قديم رقيق من بني مقاعس، لصٌّ، عدَّاء، شديد السَّواد، حتى شبه بالغراب فقيل إنه أحد أغربة العرب(١). وأكثر العلماء يضبطون اسمه (السُّلَيْك بن السُّلَكة)، ومنهم من يضبطه (السَّلِيْك بن السَّلَكة)، كابن سيده وابن منظور. لا تعلم سنة ولادته، وأرّخ الزركلي لوفاته بأنها كانت نحو سنة (١٧ق.هـ – ٦٠٥ م)(٢). أسقط علماء الأدب شعره على حياته، يلتمسون مواقفه وأحداث حياته من خلال شعره؛ لقلّة أخباره، فشعر السُّلَيْك وثيقة مهمة في التأريخ لحياته، وفهم شخصيته، وهو مزيج من الحديث عن كرم نفسه وشجاعته ووفائه للصديق وغزله بالمرأة والإغارة والسلب، وإن كان حديثه عن الإغارة هو الغالب على شعره، دفعه إليها فقره وسواده ورقه مما حمل قومه على التنكّر له، فانقطع عنهم، وعاش في الفلاة غريباً، مع حنينه لقومه، ورغبته في حياة مستقرّة، فاضطربت نفسه، واتجه للقتل والسّلب؛ لأنه وجد في ترهيب الناس إثباتاً لفروسيته، وساعده على ذلك التفاف البؤساء من حوله، فاستعان بهم على القتل والنهب، تسعده الإغارة، ويفخر بحيلته في الترقب للوصول إلى مبتغاه من الإبل وغيرها، وقتل صاحب المال، والفرار بما حصل عليه مع صحبه.

وكان لفتكه وخوف الناس من إغاراته الأثر النافع في معالجة رقّه؛ فليس رقيقاً مهملاً مجهول النسب؛ لأن خوف الناس من غدره ومخالسته

---

(١) يراجع سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، لجمال الدين بن نباتة المصري (٦٨٦ – ٧٦٨هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي: ص١٢٦، وما بعدها.

(٢) يراجع الأعلام، لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين (٢٠٠٢م): ج٣/١١٥.

شغلهم بالحديث عنه، فجرّ عليه ذلك النفع من حيث لا يدري، سأل الناسُ عنه فعرفوا أصله، فصار نسبه معروفاً بين العرب، ودونته كتب الأدب، يقول ابن قتيبة: "هو منسوب إلى أمه سُلَكَة، وكانت سوداء، واسم أبيه عمرو بن يثربيّ، ويقال: عمير، وهو من بنى كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم، وهو أحد أغربة العرب وهجنائهم وصعاليكهم ورجيلائهم، وكان له بأس ونجدة، وكان أدلّ الناس بالأرض، وأجودهم عدواً على رجليه"(١).

تلك الحياة الحافلة بالمخاطر تنبئ بأن نهاية السُّلَيْك هي القتل، وقد تحقق ذلك، فقد كان حريصاً على الإغارة على اليمن بعيداً عن الأرض التي يعيش فيها؛ حتى يطول عمره، وكان يدفع إتاوة لزعيم خثعم ليسمح له بالمرور من أرضه للإغارة على اليمن، ويمنعه منهم إن احتاج لذلك، لكن هذا التعاون لم يدم، فوقع خلاف بينه وبين خثعم مما دعاه إلى توعدها والإغارة عليها، واستهان بهم، فأسر امرأة خثعميةً من زوجها، وتزوجها، فكانت نهايته(٢).

غلب على شعر السُّلَيْك ما يمكن أن يسمى شعر المواقف، حين يعالج الحدث ببيتٍ أو بيتين، ويتبين عند الدّراسة أنّها تؤدي الغرض الذي أراده الشاعر؛ مما يرجّح أن هذا الشعر ليس أصله مطوّلات سقطت ولم يأت منها إلا البيت والبيتان، بل هي جميع ما قاله الشاعر، ومرجع ذلك إلى

---

(١) الشعر والشعراء، لابن قتيبة، تحقيق: أحمد محمد شاكر، المكتبة التوفيقية، الطبعة الأولى (٢٠١٣م): ج١/٢٩٧.

(٢) يراجع الأغاني، لأبي الفرج، علي بن الحسين الأصفهاني (ت٣٥٦هـ – ٩٧٦م)، تحقيق: دكتور/ إحسان عباس – دكتور/ إبراهيم السعافين – الأستاذ/ بكر عباس، دار صادر، بيروت – لبنان، الطبعة الثالثة (١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م): ج٢٠/٢٤٩.

سقوطه من أعين الناس، وهذا يطفئ في نفسه الرغبة عن المناظرة بشعره ومسابقة غيره من الشعراء؛ لأن إنسانيته ووجوده من الأصل ليسا محلًّا لاعتبار الناس واهتمامهم، فكيف بفنه؟

اعتزل الصَّعَاليك الناس بعد أن تنكروا لهم، وعاشوا بعيداً عن الناس، فكونوا مجتمعاً من المنبوذين، واستعان بعضهم ببعضٍ في مواجهة المجتمعات التي رفضتهم، فتوفر معهم المال، وأسباب الحياة من الطعام والشراب، وكان فيهم نساء؛ فاستقامت لهم حياة كاملة. وهنا تظهر أهمية أشعار الصَّعَاليك، كالسُّلَيْك بنِ السُّلَكَة، والشَّنْفَرَى، وتَأَبَّطَ شَرًّا، وعُرْوَة بنِ الوَرْدِ؛ لأنها تحكي مظاهر تلك الحياة الموازية لحياة المجتمعات المستقرّة، وهي أصدق ما سجل عن حياة الصَّعَاليك، ولا يتأتى فهمها على وجهها الأتمّ، واستخراج ما فيها إلا بدراسةٍ بلاغيّة لتراكيب ذلك الشعر.

ولا يغيب عن البال أن الدّارس للشعر الجاهلي يستفيد مما ناله هذا الشعر من نظرة إعظامٍ لشعرائه الذين صفت قرائحهم، وتحدّوا بشعرهم صنّاع البيان في زمانهم؛ لأن رواية الناس لهذا الشعر مع فصاحة العامّة في ذلك الزمان يشهد له بالإجادة، ولو كان فيه ما يغمز به ما تجاوز سامعيه الأُوَل، ولصار عيباً يعيّر به قائله، ونقصاً يتناقل الناس مذمّته. وحسبنا شهادة له أنّ القصيدة كانت تمرّ بعد إنشادها للمرة الأولى على قبائل العرب مع اختلاف لهجاتهم، وهذا اختبار لها بعد اختبار، فتحفظ عن قائلها، وتسجل له براءة اختراع معانيها، لا يأتي بعده أحد يشير إلى معنى ورد في قصيدته إلا قالوا: هو مأخوذة من قول فلان، فينسب الفضل في اختراع المعاني لمن سبق إلى إنشاء المعنى ويحفظ له. وفصاحة العامّة المعاصرين للشّاعر وقبولهم لشعره يجب أن يكون حاضراً عند ملاحظة أخطاء في شعره؛ لأنّ هذه الملاحظات أو الأخطاء تكون عند النظرة الأولى، ثُمَّ يزول ذلك، ويشهد

للشاعر بالتفوّق عند إمعان النظر. وإنما دعاني للتعرض لهذه المسألة أن عيون الأدب العربي حفلت بمآخذ على شعراء جاهليين، وهي تحتاج لمعاودة النظر، (فمثلاً): عيب على امرئ القيس إسكان فعل الشرب في قوله:

حَلَّتْ لِيَ الخَمْرُ وَكُنْتُ امْرَءًا ... عَنْ شَرْبِهِمْ فِيْ شُغُلٍ شَاغِلِ

فَاليَوْمَ أَشْرَبْ غَيْرَ مُسْتَحْقِبٍ ... إِثْماً مِنَ اللهِ وَلَا وَاغِلِ(١)

والبيت عند التأمل صحيح ينطبق عليه إيجاز بحذف جملة الشرط؛ لأن التقدير: فاليوم إنْ أشربْ، أشربْ غير مستحقب إثماً من الله ولا واغلٍ، شغله مقتل أبيه عن الشرب، وهو مع حبه للخمر وتهالكه في طلبها حلف ألا يشرب حتى يأخذ بثأر أبيه، وهو في البيت يتشكّك أن يشرب الخمر التي حلّت له؛ لأنه نال من بني أسد فضاعف هذا من نشوته التي بلغت مبلغها، فاستغنى عن الخمر. ونظير هذا الإيجاز قول الله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾[الملك:٣، ٤]. حذفت جملة الشرط قبل فعل الانقلاب، والتقدير: ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ، إن ترجع البصر كرتين، ينقلبْ إليك البصر خاسئاً وهو حسير. وليس هذا خاصًّا بالشعر، بل في كلّ قولٍ نقل عن أهل العصر الجاهلي ووقفت معه ذائقة المتأخرين، كما في قولهم: "كسر الزجاجُ الحجرَ"، فالعبارة لها وجهها من البلاغة، فهي كناية عن قوة الزجاج وتماسكه حتى

(١) البيتان من السريع لامرئ القيس بن حجر في ديوانه بشرح أبي سعيد السكريّ، تحقيق: دكتور/ أنور عليان أبو سليم – دكتور/ محمد علي الشوابكة، مركز زايد للتراث والتاريخ، الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى (١٤٢١هـ – ٢٠٠١م): ص٥٢٢، ٥٢٣.

أنه فتت الحجر حين ألقي عليه، أو كاد يفتته. وفي قولهم: "خرق الثوبُ المسمارَ" مبالغة ممكنة عقلاً لا عادة، فالخرق في اللغة المفازة(١)، والعبارة كناية عن فرط سعة الثوب، اتسع الثوب فغيب المسمار الذي ألقي عليه.

وقد كان لجمع علماء اللغة الشعر من الأمصار أثره في تعدد الرواية للأبيات، ومرجع ذلك إلى شيوع القصيدة على ألسنة الناس، وفيهم من لا يجيد الحفظ، فيتغير نطق بعض الكلمات، أو يسقط من القصيدة بيت أو أبيات، ويوقف على أقرب صورة للبيت من خلال الموازنات بين الروايات المختلفة للقصيدة في عيون كتب الأدب العربي. ولابدّ من العناية بكلِّ ما نقلته كتب الأدب؛ لأنه نتيجة تقليبٍ وبحثٍ وموازنةٍ عاشها أولئك العلماء قبل أن يسطّروا في دفاترهم شيئاً.

أسباب اختيار الموضوع:

١- الوقوف على مدى تأثر اللغة بالانحطاط الأخلاقي والحرمان الاجتماعي من خلال شعر الصَّعَاليك.

٢- الكشف عن معالم بيئة الصَّعَاليك من خلال دراسة تراكيب شعر السُّلَيْك بنِ السُّلَكَة.

٣- مدى تأثر المعاني الإنسانية كالوفاء والكرم والنجدة بطبيعة حياة الصَّعَاليك.

٤- الوقوف على صحّة إسقاط علماء الأدب شعر السُّلَيْك بنِ السُّلَكَة على حياته وواقعه.

---

(١) يراجع مقاييس اللغة، لأبي الحسين، أحمد بن فارِس بن زكَرِيّا، تحقيق: عبد السَّلام محمد هَارُون، طبعة دار الفكر (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م): ج٢/١٧٢ (خ ر ق).

خطة البحث:

مقدمة: وفيها الحديث عن أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وخطته، والدراسات السابقة، والمنهج المتبع.

أولاً: حديث السُّلَيْك عن نفسه:

(١) وفاؤه لقومه وإنذارهم من غزو بكر بن وائل.

(٢) وفاء السُّلَيْك لصحبه.

(٣) تصوير شجاعته وإقدامه.

(أ) هجومه على بني كنانة.

(ب) دفاعه عن النهاب بخطمة.

(٤) رعاية السُّلَيْك لأصحابه.

ثانياً: حديث السُّلَيْك عن الإغارة:

(١) العزم على الإغارة والذعر:

(أ) توعد وادٍ باليمن بين جأشٍ ومأرب.

(ب) توعد خثعم بالقتال.

(٢) إغارة السُّلَيْك على إبلٍ بمراد.

(٣) وصف الفرس عند الانطلاق إلى الإغارة.

(٤) أثر طول الرحلة على فرسه.

(٥) وصف خيول أصحابه في طريقها للإغارة.

(٦) إغارة السُّلَيْك على حي بني شيبان.

(٧) وصف خبرة الخيول.

(٨) الانطلاق للإغارة.

(٩) كيفية معرفة الغنائم.

ثالثاً: حديث السُّلَيْك عن المرأة:

(١) الغزل بنشيبة.

(٢) هزؤ أمامة من هيئته.

(٣) وصف فم محبوبته

(٤) إغاثة فكيهة له.

(٥) رحيل المرأة.

(٦) كثرة النساء الذميمات في بيئة الصَّعَاليك.

(٧) إيقاع النَّوَار به.

رابعاً: الأبيات المنسوبة للسُّلَيْك بن السلكة وليست له

خاتمة: وفيها أهم النتائج.

فهرس المراجع وفهرس الموضوعات.

<u>الدراسات السابقة:</u>

١. صورة المرأة عند الشعراء الصَّعَاليك في العصر الجاهليّ، د/ يوسف محمود عليمات، كلية الآداب، جامعة البحرين، ع/٤ (٢٠٠٧م). حاول البحث أن يثبت وجود صورة جديدة للمرأة في شعر الصَّعَاليك، فتكلّم عن أهمية الصورة، وأن المرأة في أشعار الصَّعَاليك رمز، وقسم المرأة إلى المرأة العاذلة، والمرأة الظاعنة، والمرأة العاملة، وهي في كلّ الأحوال تشير إلى صراع الشاعر مع قبيلته، ومجتمعه، ومع كل صورةٍ يذكر أمثلة لأشعار الصَّعَاليك، ويعلق عليها تعليقاً عامًّا؛ لإثبات وجهة نظره.

٢. الكناية أنماطها وأشكالها في شعر الصَّعَاليك، رسالة ماجستير للباحث/ عبد العزيز بن سعد بن فاضل الثقفي، جامعة أمّ القرى – المملكة العربية السعودية (٢٠١٣م). عرّف (الشَّنْفَرَى – تَأَبَطَ شَرًّا – السُّلَيْك – عُرْوَة بن الوَرْد)، وذكر بعض الموضوعات لشعرهم، ثُمَّ عرّف الكناية، ثُمَّ تناول أنماط

الكناية: (الكناية عن صفة – الكناية عن موصوف – الكناية عن نسبة – التعريض – التلويح – الرمز – الإشارة – الإيماء، ثُمَّ تكلّم عن دلالات الكناية في شعر الصَّعَاليك.

٣. لغة الجسد في أشعار الصَّعَاليك (تجليّات النّفس وأثرها في صورة الجسد)، د/ غيثاء قادرة، دار الكتاب العربي، دمشق (٢٠١٣م). تكلّم عن أهميّة الجسد، وحقيقة الجسد والروح عند الإغريق واليونان والمسلمين، ثُمَّ اعتمد الكتاب المنهج النفسي والمنهج الاجتماعي في التعليق على شواهد مختارة من شعر الصَّعَاليك تظهر صورة الجسد من الحرمان والجوع والقلق والغربة، وصورة الجسد الفاني بالهرم أو الوعيد، وصورة الجسد الشاب الفتي، والمتنبه والصابر والثائر، وصورة جسد المرأة وجسد الرجل وجسد الحيوان.

٤. التشكيل البياني في شعر الصَّعَاليك والفتّاك حتى نهاية العصر الأمويّ، رسالة دكتوراه، للباحث/ خالد جعفر مبارك، جامعة ديالي، كلية التربية للعلوم الإنسانية، العراق (١٤٣٥هـ – ٢٠١٤م). تناول الباحث مفهوم التّشكيل، ثُمَّ تعرّض لدراسة البنية التشبيهية، والبنية الاستعارية والبنية الكنائية. وعنوان البحث واسع جدًّا، وهذا ما دعى الباحث إلى عدم استقصاء جميع الصور البيانية في أشعار صعاليك العصر الجاهليّ وعصر صدر الإسلام والعصر الأمويّ، فاكتفى بنماذج يوضح بها الفكرة التي يتحدّث عنها.

٥. العناصر الفنية في تشكيل الصورة في شعر الصَّعَاليك، د/ علي أحمد مصطفى مصطفى، كلية البنات للآداب والعلوم والتربية، جامعة عين شمس، العدد ١٦ لسنة (٢٠١٥م)، الجزء الرابع. تكلّم عن مصادر الصورة عند الصَّعَاليك، كالطبيعة والدين، ثُمَّ تكلّم عن عناصر الصورة عند الصَّعَاليك، وهي تشمل: التشبيه، والاستعارة، والكناية. ثُمَّ تكلّم عن مؤثرات

فنية في الصورة، كاللغة والموسيقى، ثُمَّ تكلّم عن التصوير والرمز، وعرض نماذج من أشعار الصَّعَاليك، وقام بوصف الظواهر الفنية موضوع الدراسة.

٦. تيمة التمرد في شعر السُّلَيْك بن السُّلَكَة، لنجاة طرهيوة . وسعيد يحيى بهون علي، مجلة كيرالا، جامعة كيرالا، قسم اللغة العربية، ج١٨ سنة (٢٠٢١م). تكلّم صاحب هذه المقالة عن مفهوم الصّعْلَكَة، وفئات الصَّعَاليك، وأسباب تصعلكهم.

٧. شعر الصَّعَاليك نظرة في الرؤية والأداة، دكتور/ مذكر بن ناصر القحطاني، جامعة الحدود الشمالية (١٤٤٤هـ – ٢٠٢٢م)، عرف الصَّعَاليك، وتكلّم عن سمات مجتمع الصَّعَاليك، والسردية في شعر الصَّعَاليك، وسمات أسلوبية في شعر الصَّعَاليك.

٨. النظرة الشيطانية في شعر الصَّعَاليك – دراسة تحليلية فنية، دكتور/ ماهر أحمد سيد علي سقال، مجلة كلية اللغة العربية بنين بجرجا – جامعة الأزهر، العدد العشرون (١٤٣٧هـ – ٢٠١٦م). تناول مفهوم الصّعْلَكَة، ثُمَّ تكلّم عن الصَّعَاليك بين الجاهلية والإسلام، ثُمَّ تكلّم عن رأي النقاد في الشعراء الصَّعَاليك، ثُمَّ تكلّم عن مظاهر النزعة الشيطانية في شعر الصَّعَاليك.

والدراسات السابقة في مجملها تتناول نماذج من أشعار الصَّعَاليك، للكشف عن الغرض الذي انعقد له البحث، لكنها لم تتعرّض للدراسة البلاغية لهذه الأشعار. والحقّ أنه لا يخلو بحث من فائدة، وقد أفدت من هذه الدراسات؛ وكان هذا باعثاً لي على إقامة دراسة لشعر السُّلَيْك بنِ السُّلَكَة، بتحليل جميع الأبيات تحليلاً بلاغيًّا مع الاستنباط والنقد، والموازنة بين الروايات المختلفة للأبيات.

المنهج المتبع:

قامت الدراسة على منهج التحليل الكلّي الذي يقوم على التحليل والاستنباط والنقد، من خلال ديوان السُّلَيْك بنِ السُّلَكَة المطبوع بعنوان: **(السُّلَيْك بن السُّلَكَة أخباره وشعره)** دراسة وجمع وتحقيق: حميد آدم ثويني – وكامل سعيد عواد، مطبعة المعاني، بغداد – العراق، الطبعة الأولى (١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م)، وقد راعيت الجمع بين الروايات المختلفة للأبيات المثبتة في الديوان مع الرجوع إليها في مصادرها للوقوف على الفروق البلاغيّة بينها.

أسأل الله عونه وتوفيقه، وأن يكون عملي خالصاً لوجهه الكريم، وأن يفتح لي بسببه أبواب جوده ورحمته ورضاه.

أولاً: حديث السُّلَيْك عن نفسه

(١) وفاؤه لقومه وإنذارهم من غزو بكر بن وائل

[من الطويل]

يُكَذِّبُنِى العَمْرَانِ عَمْرُو بنُ جُنْدُبٍ ... وعَمْرُو بنُ سَعْدٍ وَالمُكَذِّبُ أَكْذَبُ
سَعَيْتُ لَعَمْرِي سَعْيَ غَيرِ مُعَجِّزِ. ... وَلا نَأْنَأً لَوْ أَنَّنِي لا أُكَذَّبُ
ثَكِلْتُكُما إِنْ لَمْ أَكُنْ قَدْ رَأَيْتُهَا ... كَرَادِيْسُ يَهْدِيْهَا إِلَى الحَيِّ مَوْكِبُ
كَرَادِيْسُ فِيْهَا الحَوْفَزَانُ وَحَوْلَهُ ... فَوَارِسُ همَّامٍ مَتَى يَدْعُ يَرْكَبُوا
تَفَاقَدتُمُ هَلْ أُنْكِرَنَّ مُغِيْرَةً ... مَعَ الصُّبْحِ يُهْدِيْهِنَّ أَشْقَرُ مُغْرِبُ[(١)]

غزت بكر بن وائل بنى تميم، وأرادت أن تغزو قوم السُّلَيْك، فلما وقف على خبرهم رجع فأنذر قومه فكذبوه، فأنشد هذه الأبيات[(٢)].

لم يحسن القوم الظنّ بالسُّلَيْك، وتشكّكوا في خبره، فعمد إلى مقولة مكذّبيه وحكاها مصرّحاً باسمي علمي التكذيب، ولا يفعل هذا إلا من لا يخشى كلام من يعانده، ولا يعتبره، وهو مبدأ نفسي؛ لأنّ حكاية كلام الخصم وترديده توهين له، بإظهاره في صورة المتعجَّب منه أو المتهكَّم به، ولو كان صدقاً لاجتهد المحدّث عنه بالكلام في سترة وصرف العيون عنه. والألف واللام في (العمران) للعهد الذهنيّ، يشير بها إلى وصفٍ للعمرين مشهور عنهما معهود لعموم المخاطبين، ولولا هذا الوصف ما صحّ الجمع بينهما في تسميةٍ واحدةٍ (عمران) بعد التعريف بالألف واللام؛ لأنّ هذه

---

(١) السُّلَيْك بن السُّلَكَة أخباره وشعره، دراسة وجمع وتحقيق: حميد آدم ثويني – كامل سعيد عواد، مطبعة العاني، بغداد – العراق، الطبعة الأولى (١٤٠٤هـ ١٩٨٤م): ص٤٧، ٤٨.

(٢) يراجع الشعر والشعراء: ج١/٢٩٨.

الطريقة في التسمية تكون مع من اشتهر عنهم الاسم مع اشتراكهم في وصفٍ له مزيد اختصاص، كالعبادلة الأربعة: (عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمرو بن العاص)، اشتركوا في شرف صحبة رسول الله ﷺ ونقل الحديث عنه. والشاعر يطنب مفسرًا العمرين (عَمْرُو بن جُنْدبٍ وعَمْرُو بن سَعْدٍ)، ويوضح الوصف المعهود لهما في أنفس من يعرفهم، وهو الكذب (والمُكَذِّبُ أَكْذَبُ). والألف واللام في الوصف (المُكَذِّبُ) هي أخت الألف واللام في التسمية (العمران)، وإفراد الوصف – مع أن المحدث عنهما اثنان – دليل الاشتراك الذي أهلهما للجمع بينهما في تسميةٍ واحدةٍ قبل ذلك. ويبدو أنه أطنب بذكر التسمية مرتين مجملة ثُمَّ مفسرّة؛ ليكون إلصاق الوصف المعهود لهما، وهو شهرتهما بالكذب أمكن، حيث يعود بالوصف إليهما مرتين، مرةً على التسمية التي جمعتهما (العمران)، ويعود على كلّ واحدٍ منهما منفرداً مرةً أخرى (عَمْرُو بن جُنْدبٍ) و(عَمْرُو بن سَعْدٍ)، وفي الكامل في اللغة والأدب "وعَمْرُو بن كعبٍ"[1]. وقد استعمل الوصف بديلاً عن الضمير (والمُكَذِّبُ أَكْذَبُ)؛ ولو جاء الكلام على الاستعمال الظاهر لقيل: وهما أكذب، لكنّه أراد أن يشير بالوصف إلى سعيهما المبالغ فيه في إشاعة كذبه بين الناس، وهذا سرّ التفعيل (المُكَذِّبُ)، والمبالغة في الوصف ملحوظة من أول البيت (يُكَذِّبُني العَمْرَانِ)، فالتكذيب متجدّد، ووراءه إظهار المبالغة في نشرهما تكذيبه بين الناس. والتذييل (والمُكَذِّبُ أَكْذَبُ) تذييل خرج مخرج المثل لاستقلاله، فله

(١) الكامل في اللغة والأدب، لأبي العباس، محمد بن يزيد المبرد (ت ٢٨٥هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي – القاهرة، الطبعة الثالثة (١٤١٧هـ – ١٩٩٧م): ج٢/١٥١.

نصيب من النقل والشهرة بين الناس تفوق مقولة مكذبيه، وتتخطى بيئة الشاعر وعصره إلى أماكن وأزمنةٍ لا حصر لها، ينقل المثل لأحداث متعددة، وفي كلّ مرةٍ ينقل فيها يستعمل استعمالًا جديداً ينظر المتكلّم والسامع بعين القلب إلى منشئ المثل الأوّل، ويستحضر في نفسه ما كان معه. ووصل التذييل بالكلام المستأنف قبله للتوسط بين الكمالين مع عدم وجود المانع.

سَعَيْتُ لَعَمْرِي سَعْيَ غَيرِ مُعَجِّزِ. ... وَلا نَأْنَأٍ لَوْ أَنَّنِي لا أُكَذَّبُ

هذا البيت وما يتلوه ينبغي أن يضاف للدراسة التاريخية للشاعر؛ لأن العلماء يجعلون من أسباب الصّعْلَكَة الخروج على القبيلة، والشاعر هنا حريص على قومه، يحذرهم من عدوٍّ أغار على غيرهم ثُمَّ توجه نحوهم. وتحذير الشاعر يهدي إلى فرط قدرة هذا المغير، وأنه يجب أن يستعدّ له القوم قبل أن يفجأهم، ويصيب أرضهم، فيسلب أموالهم وحريتهم ويملك نساءهم؛ ومثل هذا الحال من السُّلَيْك لا يكون ممن خرج على القبلية. وقد اجتهد في الوقوف على خبر بكر بن وائل (سَعَيْتُ لَعَمْرِي سَعْيَ غَيرِ مُعَجِّزِ. وَلا نَأْنَأٍ)، هو الذي سعى نحوهم حين أغاروا على تميم، وهذا سرّ تأكيد السعي بالمفعول المطلق: سعيتُ سعيَ. والقسم توكيد، والاعتراض به بين الفعل ومصدره المؤكّد له توكيد بعد توكيد يعالج به إنكار قومه لحديثه، والقسم بالعمر من فصاحة الشاعر، وهو أنسب بالمقام؛ كأنه يجعل حياته رهن تصرّف القوم إن ظهر كذبه، وفيها مناسبة لحال الإغارة؛ فإن العدوّ المغير لا يبقي على حياة الرّجال، يقتل كلّ من أيقن فيه القوّة والقدرة على القتال. وتنكير (سَعْيَ) تعظيم لهمّته، وهو يفتح بالتنكير سبيلاً لوصف هذا السعي (غير مُعَجِّزِ. وَلا نَأْنَأٍ)، أراد بنفي التعجيز خفة الأمر على نفسه، مضى للوقوف على خبر العدوّ، ولم تحدثّه نفسه بالرجوع حفاظاً على نفسه

فيتردد فيشعر بالثقل والعجز، والنفس إذا أصابها هذا الإحساس تضاعف عليها كلّما مرّ الوقت وزاد، وهذا سرّ التضعيف (مُعَجِّزِ.). أما نفي النأنأة، فالنأناء: العاجز الضعيف الجبان[1]، كأنه مشتق من النأي، وهو البعد، ومراده نفي الجبن الذي تمتلئ به النفس خوفاً فتحمل صاحبها على الفرار حرصاً على سلامته. وحسن الترتيب واضح؛ لأنّ التردد المدلول عليه بالتعجيز يكون أولاً، ثُمَّ يكون البعد والهرب المدلول عليهما بالوصف (نَأْنَأٍ). وفصلت جملة السعي عن الكلام السابق عيها لشبه كمال الاتصال؛ لأن تكذيبه لخصمه ودفاعه عن نفسه يثير في أنفس السامعين التساؤل عن حجّته ودليله لبيان دعواه، كأنه قيل: أنت تكذّب العمرين وتصرّ على دعواك، أوقفت على خبر القوم حتى تصرّ على دعواك؟ فأجاب (سَعَيْتُ لَعَمْرِي سَعْيَ غَيرِ مُعَجِّزِ...). وهو يبالغ في حرصه على القوم، ويدعوهم لمراجعة كلامه للوقوف على حقيقته بالتمني (لَوْ أَنَّنِي لا أُكَذَّبُ)، تمنى بـ(لو) للإشعار بندرة حصول المتمنى، وهو استجابة القوم له والاستماع لما يقول. والتوكيد بـ(إنَّ) استمالة أخرى للقوم لإرسال من يستطلع ويقف على حقيقة الخبر (أَنَّنِي). وهو يفسح زمن التقصّي عن الخبر بـ(لا) التي تستعمل لنفي الحال والاستقبال، يقول: هناك فرصة ومتسع من الوقت للوقوف على حقيقة ما أقول. والتضعيف في فعل التكذيب مع دلالة صيغتة على التكرار (أُكَذَّبُ) عتاب للقوم، كيف ينظرون إليه تلك النظرة، وهو يحرص عليهم من عدوٍ يريد اقتحام أرضهم واستباحة حرمتهم؟ وفصل التمني عما قبله لكمال

(١) يراجع لسان العرب، لأبي الفضل، جمال الدّين، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة (١٤١٤هـ): ج١/١٦١ (ن أ ن أ).

الانقطاع بلا إيهام؛ لاختلاف الجملتين خبراً وإنشاءً، فالجملة الأولى تخبر عن سعيه، والجملة الثانية إنشائيّة يتمنى بها عدم تكذيب قومه له.

ثَكِلْتُكُمَا إِنْ لَمْ أَكُنْ قَدْ رَأَيْتُهَا ... كَرَادِيْسُ يَهْدِيْهَا إِلَى الحَيِّ مَوْكِبُ

كَرَادِيْسُ فِيهَا الحَوْفَزَانُ وَحَوْلَهُ ... فَوَارِسُ همَّامٍ مَتَى يَدْعُ يَرْكَبُوا

بعد بيان حاله حين اجتهد في الوقوف على خبر القوم، ومراجعة قومه في تكذيبه بالتمني يفصل السُّلَيْك المشهد الذي رأى عليه المغيرين، ويفتح الحديث عن هذا التفصيل بدعاءٍ يظهر حرصه على قومه وخوفه عليهم (ثَكِلْتُكُما إِنْ لَمْ أَكُنْ قَدْ رَأَيْتُهَا)، وفصل الدعاء عن التمني السابق عليه لكمال الانقطاع؛ لأن جملة الدعاء خبريّة لفظاً إنشائيّة معنى. والدعاء بالثكل مشهور عند تصحيح فهم المخاطب ولفت انتباهه لحقيقةٍ أو فائدةٍ غفل عنها. التفت الشاعر لخطاب علمي التكذيب (ثَكِلْتُكُما)، فأعاد الضمير على العمرين الذين افتتح بتكذيبهما الأبيات. والالتفات يظهر جرأة الشاعر حين التفت، فإنه عند توهين دعوى المكذبين تكلّم عنهما بالغيبة (يُكَذِّبُنِى العَمْرَانِ عَمْرُو بنُ جُنْدبٍ وعَمْرُو بنُ سَعْدٍ)؛ ليفيد توهين دعواهما، وبعده عن ساحة اهتمامه، وحين دعا عليهما خاطبهما (ثَكِلْتُكُما)؛ ليظهر مقدرته وجرأته على مكذّبيه، وفي مختار الأغاني "ثَكِلْتُهُمَا"[1] بالغيبة، وتوهين دعوى المكذّبين مع هذه الرواية ممتد (يُكَذِّبُنِى العَمْرَانِ ثَكِلْتُهُمَا). وهو يلمح بخطاب الاثنين أنه يكفي للوقوف على حقيقة المغيرين إرسال اثنين من القوم. ووضع المضمر موضع المظهر (إِنْ لَمْ أَكُنْ قَدْ رَأَيْتُهَا)، ولم يصرّح في

(١) مختار الأغاني في الأخبار والتهاني، لابن منظور، محمد بن مكرم (٦٣٠-٧١١هـ)،تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي – القاهرة (١٣٨٥هـ – ١٩٦٥م): ج٤/٢٨٠.

كلامه بما يعود الضمير عليه من الكتائب التي اجتهد في تتبعها ومعرفة وجهتها، وهو يجذب بهذا الاستعمال نفس المخاطب لتلقي تفسير المراد بهذا الإضمار. ثُمَّ يسعف حاجته للتفسير (كَرَادِيْسُ يَهْدِيْهَا إِلَى الحَيِّ مَوْكِبُ) والكَرَادِيْسُ: كتائب الخيل، والموكب: الطليعة من الفرسان، تتقدم الجيش للاستطلاع(١). حذف من الكلام المسند إليه؛ لأنه أعلنه حين وضع المضمر موضع المظهر (ثَكِلْتُكُما إِنْ لَمْ أَكُنْ قَدْ رَأَيْتُهَا)، ولو جاء الكلام على الأصل لقيل: هي كَرَادِيْسُ يَهْدِيهَا إِلَى الحَيِّ مَوكِبُ. وفصل بين التفسير والمفسّر لشبه كمال الاتصال؛ لأن الإضمار أثار التساؤل عن المراد بهذا الضمير، كأنه قيل وما هي؟ فأجاب: (كَرَادِيْسُ يَهْدِيهَا إِلَى الحَيِّ مَوكِبُ). ونكّر (كَرَادِيْسُ)؛ لبيان كثرة تلك الكتائب، وأنها بلغت حدًّا لا يتمكّن الشاعر من تحديده، فلجأ إلى التنكير. والجملة الوصفية (يَهْدِيْهَا إِلَى الحَيِّ مَوْكِبُ) تزيل شيئًا من الإبهام، ولها مدخل في التحذير، فتقدّم العدوّ نحو قوم السُّلَيْك يتكرر كما أفاد التعبير بصيغة المضارع، والمسافة تقل شيئًا فشيئًا. وتقديم متعلق الهداية على الفاعل (كَرَادِيْسُ يَهْدِيهَا إِلَى الحَيِّ مَوكِبُ) قصر يزيد من لفت الانتباه تحذيراً للقوم؛ لأنه يؤكّد أن قوم السُّلَيْك هم وجهة العدوّ، لا يقصد غيرها، قصرت أرض السُّلَيْك على كونها وجهة العدو قصر صفةٍ على موصوفٍ قصراً حقيقيًّا تحقيقيًّا، ولو جاء الكلام على الأصل لقيل: كَرَادِيْسُ يَهْدِيْهَا مَوكِب إِلَى الحَيِّ. وتنكير (مَوكِبُ) يحمل المخاطب على متابعة كلام الشاعر والاستزادة منه والاسترسال معه؛ ليقف على بيان

(١) يراجع الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية)، لإسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى (١٣٧٦هـ - ١٩٥٦م): ج٣/٩٧٠ (ك ر د س)، ج١/٢٣٤ (و ك ب).

الإبهام الذي يشغله في البحث، وهذه من فحولة الشاعر، وحسن أدائه. وفي الشعر والشعراء: "يَهْدِيْهَا إِلَى الحَيِّ كَوْكَبُ"(١)، وهذه الرواية أدلّ على الجماعة التي تخصصت في الاستطلاع أمام الجيش المغير؛ لأن كوكب كل شيء معظمه(٢). والفصل بين الجملتين يهدي إلى هذا، فصلت جملة التنكير الثانية (كَرَادِيْسُ فِيهِا الحَوْفَزَانُ وِحَوْلَهُ...) عن الجملة قبلها (كَرَادِيسُ يَهْدِيهَا إِلَى الحَيِّ مَوكِبُ) لشبه كمال الاتصال؛ لأن الحديث عن الموكب يثير التساؤل في أنفس السّامعين عن تعيين أصحاب ذلك الموكب، فعينهم الشاعر (كَرَادِيْسُ يَهْدِيْهَا إِلَى الحَيِّ مَوْكِبُ)، واستفتح الجملة الثانية بالنّكرة التي جاءت قبل ذلك (كَرَادِيْسُ)؛ رعاية منه بالمعنى، فهو يظهر بها أن الجملة الثانية تضيف شيئًا لما قبلها، ويخفف عن عقل المتلقي عناء البحث عن علاقة الكلام بما قبله.

وبعد أن كشف بالوصف بعض غموض التنكير في (كَرَادِيْسُ)، فبيّن عدة العدوّ وعدده وقربه، استأنف بالتنكير؛ ليضيف أوصافاً تزيل إبهام التنكير (كَرَادِيْسُ فِيهِا الحَوْفَزَانُ وِحَوْلَهُ فَوَارِسُ همَّامٍ)، فكتائب الخيل عليها فوارس همّام المخلصة لقائدها، وقائدها هو الحوفزان، قال الجوهري: "والحوفزان: لقب الحارث بن شريك الشَّيبَانِيّ، لقب بذلك لأن قيس بن عاصم التميمي حَفَزَهُ بالرمح حين خاف أن يفوته"(٣). وتعيين الحوفزان دليل على

(١) الشعر والشعراء: ج١/٢٩٩.
(٢) يراجع لسان العرب: ج١/٧٢١ (ك و ك ب).
(٣) الصحاح: ج٣/٨٧٤ (ح ف ز).

شهرةٍ كانت لهذا الرجل، فقد كان يلقب بقاتل الملوك؛ لكثرة إغاراته(١). وفي جملة ركوب الفوارس إيجاز بحذف مفعول الركوب، وأصل الكلام بعد تقدير المحذوف: مَتَى يَدْعُ يَرْكَبُوا الخيل، والأسلوب بتمامه كناية عن مطلق طاعة الفوارس للحوفزان. ورغبة الشاعر في تقوية المعنى في أنفس المخاطبين وتوكيده لم تفارقه، فقدّم عند تحديد القائد (كَرَادِيْسُ فِيهِا الحَوْفَزَانُ)، وقدّم حين عين الجنود (وحَوْلَهُ فَوَارِسُ همَّامٍ)، ولو جاء الكلام على الأصل لقيل: كَرَادِيْس الحَوْفَزَانُ فِيهِا – وفَوَارِسُ همَّامٍ حَوْلَهُ. والنظر في ترتيب الجمل يظهر بلاغة الشاعر، حيث وصف بعد التنكير بشبه الجملة (كَرَادِيْسُ فِيهِا الحَوْفَزَانُ)، ثُمَّ أتى بحالٍ من الحوفزان المصرح به في شبه الجملة (وحَوْلَهُ فَوَارِسُ همَّامٍ مَتَى يَدْعُ يَرْكَبُوا)، وفي مختار الأغاني رواية تربط نسب الحوفزان بفوارس همَّام: "وقَوْمهُ فَوَارِسُ همَّامٍ"(٢)، فالحوفزان: هو بن شريك الشيباني، وهمام: هو همام بن مرة بن ذهل بن شيبان(٣). ثُمَّ أتى بحالٍ أخرى من الفوارس المصرح بها في الحال الأول (مَتَى يَدْعُ يَرْكَبُوا)، ولو عدل عن هذا الترتيب ما تمّ المعنى. ولا شكّ أن العدوّ بما عليه من عَدَدٍ وعُدّة وحسن طاعة الفوارس لقائدهم يفلح في الإغارة، وقد ألمح السُّلَيْك لذلك حين دعا على مخاطبيه بالفقد:

تَفَاقَدتُمُ هَلْ أُنْكِرَنَّ مُغِيرَةً ... مَعَ الصُّبْحِ يُهْدِيهِنَّ أَشْقَرُ مُغْرِبُ

(١) يراجع جمهرة الأمثال، لأبي هلال العسكريّ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم – وعبد المجيد قطامش، دار الفكر، الطبعة الثانية (١٩٨٨م): ج٢/٤١٤.

(٢) مختار الأغاني في الأخبار والتهاني: ج٤/٢٨٠.

(٣) يراجع الصحاح: ج٣/٨٧٤ (ح ف ز).

وحرصه على قومه ونصحه لهم قرينة على أن الدعاء للتنبيه وجذبهم للاستماع للنصح، لكن اصطفاء مادة الفقد فيه إيلام للمخاطب، فالتفاقد تفاعل، يفقد كلّ من المدعو عليهم من يحبهم ويعنيه شأنهم، فيتألم مرتين: يتألم لما أصابه، ويتألم لما أصاب من يحب، فمادة الفقد إرشاد إلى عاقبة خذلانهم والإصرار على تكذيبه، وقد فصل الدعاء عما قبله لكمال الانقطاع؛ لاختلاف الجملتين خبراً وإنشاءً، فالأولى خبريّة لفظاً ومعنى (كَرَادِيْسُ فِيهِا الحَوْفَزَانُ وِحَوْلَهُ فَوَارِسُ همَّامٍ مَتَى يَدْعُ يَرْكَبُوا)، والثانية خبريّة لفظاً إنشائيّة معنى (تَفَاقَدتُمُ). وفي الدعاء إصرار على رأيه، وهذا أدعى إلى مراجعته، أنت تصرّ على قولك، ما مدى يقينك مما تقول؟ وهو يرد بالاستفهام بعد الدعاء على ما استشعره قومه (هَلْ أُنْكِرَنَّ مُغِيرَةً مَعَ الصُّبْحِ يُهْدِيْهِنَّ أَشْقَرُ مُغْرِبُ)، وفصل الاستفهام عن الدعاء لشبه كمال الاتصال، حيث أثار الدعاء التساؤل عن إصراره في إقناع القوم، فوقع الاستفهام موقع الجواب عن ذلك. والاستفهام أنسب للمقام من التعبير بأسلوبٍ خبريّ؛ لأن الخبر قد يصدقه المخاطب أو يكذبه، والشاعر لا يسمح للمخاطب بهذا التخيير، فيسوق له المعنى في صورة استفهامٍ تقريريّ يفيد تحققه وتثبته من الأمر، ويقطع عليه الاحتمال بين التصديق والتصور، فيأتي بأداة استفهامٍ لا تستعمل إلا في التصديق، وهي (هَلْ)، والجواب معها بـ(نعم) أو (لا). والإيجاز بحذف الموصوف (مُغِيرَةً) تأكيد لمعنى الاجتماع الذي قرره الشاعر قبل ذلك حين كنى عن طاعة الفوارس لقائدهم (وِحَوْلَهُ فَوَارِسُ همَّامٍ مَتَى يَدْعُ يَرْكَبُوا)؛ لأن أصل الكلام: هَلْ أُنْكِرَنَّ خيلاً مُغِيرَةً؟ فحذف الموصوف (خيلاً)؛ لأنه صرح به قبل ذلك مرتين بلفظ (كَرَادِيْسُ). وجعل إدراكه للخيل وقت الوضوح وتمام النشاط (مَعَ الصُّبْحِ)، وفي هذا القيد إيجاز بحذف جملة فعليَّةٍ، وأصل الكلام بعد تقدير المحذوف: أدركتها مع الصبح،

والقيد محير عند أول النظر، قد يفهم منه أنه أدركها في وضوح الصبح، وهذا هو المراد، وقد يفهم منه أن الإغارة ستكون وقت الصبح، وهذا الاحتمال غير مراد؛ لأنه عطف عليه ما يدل على كرم الخيل وجودتها (يُهْدِيْهِنَّ أَشْقَرُ مُغْرِبُ)، وإدراك هذا يتحقق للعين بخلاف تحديد وقت الإغارة فقد يعتمد فيه على تقدير العقل، لكن الجمع بين الأمرين يدخلهما في حيز الإدراك الحسيّ للشاعر، أدرك الخيل المحدّث عنها وقت الصباح. ودلّ على وضوح إدراكه فوصف الخيل التي تتقدم الكتيبة لتهديها لأرض السُّلَيْك بشدّة الحمرة (أَشْقَرُ)، والشقرة لا تكون إلا في أكرم الخيل وأجودها، وشفع إلى شقرة الخيل بياضاً في أوجهها اتسع حتى تجاوز الأعين (مُغْرِبُ)[1]. وإسناد الهداية للخيل (يُهْدِيهِنَّ أَشْقَرُ مُغْرِبُ) مجاز عقليّ، أسندت فيه الهداية للمفعول (الخيل)، والهداية تكون في الحقيقة من الفوارس الذين يقودون الخيل؛ وسرّ المجاز إظهار حسن سياسة قائدي الخيول، كأن حسن السياسة تجاوز الفوارس للخيل أنفسها، فانقادت في طواعيةٍ ويسرٍ. جمع للخيل المغيرة التي تحدّث عنها بين ثلاث صفات: معتدية، كما هو مفهوم من الإغارة (مُغِيرَةً)، وواضحة له حين أدركها، كما هو مفهوم من التقييد بكون الإدراك في وقت الصباح (مَعَ الصُّبْحِ)، وكريمة تنقاد لقائديها (يُهْدِيهِنَّ أَشْقَرُ مُغْرِبُ)، ولم يأت بالواو بين الصفات؛ لأنه لا يعددها، لكنه يقرّر أنها جميعاً تحققت له مجتمعة. والإنكار عمل القلب (هَلْ أُنْكِرَنَّ) ورؤية شدة حمرة الخيل وغرتها عمل جارحة العين (مُغِيرَةً مَعَ الصُّبْحِ يُهْدِيهِنَّ أَشْقَرُ مُغْرِبُ)، يقول: إن القلب لا يخطئ فهم ما حصل لجارحة العين وعرضته على القلب ففهمه ووعاه.

---

(١) يراجع لسان العرب: ج٤/٤٢١ (ش ق ر)، ج١/٦٤٧ (غ ر ب).

ونقل أبو الفرج الأصفهاني عن أبي عبيدة أن بني بكر بن وائل قدموا على القوم فأغاروا على جميعهم(١). وفي ديوان السُّلَيْك ما يؤكد معاينته لحضور آل يشكر لغزو قومه، وآل يشكر من بكر بن وائل، يقول:

[من الطويل]

فَبَيْنَا يَجُوْلُ الحَيُّ فِيْ رَوْنَقِ الضُّحَى ... إِذَا لُمَةٌ مِنْ آلِ يَشْكُرَ بِالعَرَى(٢)

يشير إلى أن جماعة من آل يشكر نزلت على الحيّ في وقت الضحى عند حركة أهل الحيّ وسعيهم. والشاعر يلمح باستعمال (بينا) في الشرط إلى أن القوم لم يكن لهم علم بقدوم آل يشكر، وأنهم تفاجأوا بهم في ساحتهم، و(بينا) ظرف زمان يفيد المفاجأة، وأصله (بين)، أشبعت الفتحة ألفاً(٣)، ويبدو أنه عدل عن الأصل (بين) إلى إشباع الفتحة ألفاً لمزيد عناية بهذا الظرف؛ ليلفت إلى ما فيه من معنى المفاجأة؛ لأنها عماد المعنى. والفاء (فبينا) تحتمل الاستئناف على أن يكون المعنى إن قدوم آل يشكر إلى الحي كان عند أول حركة القوم في الحي، ويحتمل العطف على كلامٍ سابقٍ كان بينه وبين القوم، وأنه حدّثهم عن ذلك القدوم. والمفاجأة الملحوظة من استعمال (بينا) تظهر أن القوم مع إخباره لم يصدقوه، وهذا المعنى ثابت في أخبار السُّلَيْك، كما تقدم في الأبيات السابقة في التحليل، وهي تتفق مع البيت الذي معنا هنا في الوزن، لكنها تختلف معه في القافية، ولولا ذلك لألحق البيت بتلك الأبيات.

---

(١) يراجع الأغاني:ج٢٠/٢٤٦.

(٢) السُّلَيْك بن السُّلَكَة أخباره وشعره: ص٦٨.

(٣) يراجع لسان العرب: ج١٣/٦٦ (ب ي ن).

وتحديد الوقت (في رونق الضحى) يظهر تمام استعداد العدوّ من العدة وكثرة العدد، وأن ذلك حمله على الشجاعة والحضور للإغارة على قوم السُّلَيْك في أشدّ الأوقات وضوحاً، وهو وقت الضحى، حيث يكون نشاط القوم، المشار إليه بكثرة حركة أهل الحي (يجول الحي)، أسند التجول للحي على طريقة المجاز العقلي بعلاقة المكانية؛ لإظهار كثرة التجول الذي عمّ جميع أهل الحي، فتعدت حركتهم إلى المكان فلوحظ عليه تلك الحركة، كأن الأرض تتحرك بهم. ودلالة التجول على التطواف والدوران[١] تناسب هذا المجاز.

ويبدو أن تلك الإغارة آلمت نفس السُّلَيْك، فلم يصرح بها، لكنه كنى عن وقوعها بحضور جماعة من آل يشكر إلى العرى، وهو الخلاء الواسع في ديار قومه[٢] (إذا لمة من آل يشكر بالعرى)، ويلحظ من استعمال (إذا) ودلالتها في التحقق أن السُّلَيْك كان ينتظر قدوم آل يشكر، ويرقب قومه عن بعدٍ، وهذا سرّ التحقق، لكنه لم يدافع عن قومه؛ لغلبة المغيرين، وأنه لا طاقة له بهم، كما أفاد التعبير بـ(اللمة): وهي الجماعة، وتوصف به الجماعة للإشارة إلى اتحادها وقوتها[٣].

(١) يراجع الصحاح: ج٤/ ١٦٦٣ (ج و ل).
(٢) يراجع مقاييس اللغة: ج٤/٢٩٨ (ع ر و ي).
(٣) يراجع لسان العرب: ج١٢/٥٤٧، ٥٤٨ (ل م م).

(٢) وفاء السُّلَيْك لصحبه

[من الطويل]

بَكَى صُرَدٌ لَمَّا رَأَى الحَيَّ أَعْرَضَتْ ... مَهَامِهُ رَمْلٍ دُوْنَهَمْ وَسُهُوبُ
وَخَوَّفَهُ رَيْبَ الزَّمَانِ وَفَقْرَهُ ... بِلَادُ عَدُوٍّ حَاضِرٍ وَجُدُوْبُ
وَنَأْيٌ بَعِيْدٌ عَنْ بِلَادِ مُقَاعِسٍ ... وَأَنَّ مَخَارِيْقَ الأُمُوْرِ تُرِيْبُ
فَقُلْتُ لَهُ لَا تَبْكِ عَيْنُكَ إِنَّهَا ... قَضِيَّةُ مَا يُقْضَى لَنَا فَنَؤُوْبُ
سَيَكْفِيْكَ فَقْدَ الحَيِّ لَحْمٌ مُغَرَّضٌ ... وَمَاءُ قُدُورٍ فِي الجِفَانِ مَشُوبُ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ الدَّهْرَ لَوْنَانِ لَوْنُهُ ... وَطَوْرَانِ بِشْرٌ مَرَّةً وَكَدُوْبُ
فَمَا خَيْرٌ مَنْ لا يرتجي خَيْرَ أَوْبَةٍ ... وَيُخْشَى عَلَيْهِ سَرْيَةٌ وَحُرُوْبُ
رَدَدتُ عَلَيْهِ نَفْسَهُ فَكَأَنَّمَا ... تَلَاقَى عَلَيْهِ مِنْسَرٌ وَسرُوبُ
فَمَا ذَرَّ قَرْنُ الشَّمْسِ حَتَّى أَرَيْتُهُ ... قِصَارَ المَنَايَا وَالفُؤَادُ يَذُوبُ
وَضَارَبْتُ عَنْهُ القَوْمَ حَتَّى كَأَنَّهُ ... يُصَعِّدُ فِي آثَارِهِمْ وَيَصُوْبُ
وَقُلْتُ لَهُ خُذْ هَجْمَةً حِمْيَرِيَّةً ... وَأَهْلاً وَلَا يَبْعُدْ عَلَيْكَ شَرُوبُ
وَلَيلَةَ جَابَانٍ كَرَرْتُ عَلَيْهِمُ ... عَلَى سَاعَةٍ فِيْهَا الإِيَابُ حَبِيْبُ
عَشِيَّةَ ضَلَّتْ بِالحَرَامِيِّ نَاقَةٌ ... بِحَيَّهَلاَ يَدْعُو بِهَا فَتُجِيْبُ
فَضَارَبْتُ أُوْلَى الخَيْلِ حَتَّى كَأَنَّمَا ... أُمِيْلُ عَلَيْهَا أَيْدَعٌ وَصَبِيْبُ[(١)]

خرج السُّلَيْك مع صديقه (**صُرَدٌ**) للإغارة، فتملك الخوف ذلك الصديق بعد أن ابتعد عن الحي وأشرف على الأرض التي قصدها للسرقة، والخوف في مثل ذلك الموقف يضيع على السُّلَيْك غايته، فأقبل عليه يصرف عنه خوفه ويحثه على الإقدام. وذكر الإمام أبو الفرج أن السُّلَيْك انطلق مع أحماس من بني سعد وبني عبد شمس للإغارة، وأنهم انصرفوا عنه حين

(١) السُّلَيْك بن السُّلَكَة أخباره وشعره: ص٤٤ – ٤٦.

انقطعت عنهم المياه، فهم بقتل بعضهم ثُمَّ أمسك، ثُمَّ مضى السُّلَيْك في بني مقاعس ومعه رجل من بني حرام يقال له صرد، وأن صرداً هذا بكى حين انصرف أصحابه(١). والحق أن الأبيات لا تدل على كل هذه المعاني، وسيأتي أن قوم السُّلَيْك حين أخبرهم بقدوم بكرٍ لغزوهم لم يصدقوا قوله، فكيف ينطلقون معه مسافات يفقدون فيها الماء؟

بَكَى صُرَدٌ لَمَّا رَأَى الحَيَّ أَعْرَضَتْ ... مَهَامِهُ رَمْلٍ دُوْنَهُمْ وَسُهُوبُ

بدأ بالبكاء الذي فاجأه من صديقه لفراق أرضه (بَكَى صُرَدٌ)؛ والبكاء في هذا الموقف دليل الولاء، وهو محطّ عجبٍ من السُّلَيْك من صديقٍ خرج للسرقة، وهذا سرّ تقييد البكاء بـ(لما) الحينية، التي تفيد ترتب أمرٍ على وقوع آخر. وجعل إعراض أهل الحي إعراضاً للحي بتمامه حين عبر بالحيّ عن ساكنيه معرّفاً بالألف واللام (الحَيَّ أَعْرَضَتْ)، على طريقة المجاز العقلي بعلاقة المكانية؛ لأن حمل الأسلوب على المجاز العقليّ يظهر المبالغة في الإعراض حين أسند الإعراض للحي والإعراض يكون من ساكني الحيّ، ولا يلحظ فيه أن المعرضين بعض أهل الحيّ، والتأنيث المسند للإعراض (أَعْرَضَتْ) يعود للأرض؛ لأن الحي أرض يعيش أهلها عليها. ولم يترك للغموض والإبهام والتعمية سبيلاً، فأضاف الظرف للذين يسكنون الحي عنايةً منه بالمعنى (دُوْنَهُمْ)؛ ليحصّل المتلقي المعنى من أقرب سبيل، ولو أسنده للحي لقال: مَهَامِهُ رَمْلٍ دُونهُ وَسُهُوبُ، أو مَهَامِهُ رَمْلٍ دُونها وَسُهُوبُ على أن الضمير للأرض العائد عليها ضمير التأنيث السابق مع فعل الإعراض (أَعْرَضَتْ). وقيد البكاء بحالٍ أبانت عن غيبة أهل الحي في البعد (مَهَامِهُ رَمْلٍ دُوْنَهُمْ وَسُهُوبُ)، فبينه وبينهم صحراء واسعة تتنوع أرضها كلما

(١) يراجع الأغاني: ج٢٠/٢٤٣، ٢٤٤.

تنقلوا فيها، فمنها أرض مستوية (سُهُوبُ)، ومنها رمال متموّجة (مَهَامِهُ رَمْلٍ)[١]. وتقديم الحديث عن الرمال المتموجة على الظرف (دُوْنَهُمْ) يظهر طول فكره وهو يتخطى تلك الصحراء، واختلافها دليل طول الرّحلة؛ لأن اختلاف البيئة الصحراوية بين أرض متموّجة وأرضٍ مستوية لا يكون في مكانٍ قريبٍ. ولو لم يقيد البكاء بالحال الدّالة على البعد لفهم أن البكاء كان وقت رحيله.

وقد انتقل الشاعر من ملاحظة ظاهر صديقه لملاحظة فكره في الرحلة التي قرر أن يكملها، فعطف خوف الشاعر مما يقبل عليه ومن دوام فقره عند عدم الظفر بالغنيمة على رؤية إعراض الحي (لَمَّا رَأَى الحَيَّ أَعْرَضَتْ)، فأدخل خوف صديقه تحت (لما) التي رتبت رؤية إعراض الحي والخوف على بكاء ذلك الصديق (بَكَى صُرَدٌ):

وَخَوَّفَهُ رَيْبَ الزَّمَانِ وَفَقْرَهُ ... بِلادُ عَدُوٍّ حَاضِرٍ وَجُدُوبُ

وَنَأْيٌ بَعِيدٌ عَنْ بِلادِ مُقَاعِسٍ ... وَأَنَّ مَخَارِيقَ الأُمُورِ تُرِيبُ

ويلحظ أنه تكلّم عن الخوف بعد إعراض الصّحب؛ لأنّهم قوة يستعين بهم على العدوّ الذي يغيرون عليه، وأنّ هذه القوة إذا فقدت صار نجاح الإغارة محفوفاً بالمخاطر التي أشار إليها بـ(ريب الزمان)، أضاف المصدر إلى زمانه، وعطف الفقر على ريب الزمان، فظهر أنه يخاف ريب الزمان وفقر الزمان (وَخَوَّفَهُ رَيْبَ الزَّمَانِ وَفَقْرَهُ)، وهو يريد ما يكون في الزمان من وقائع تجمع على صاحبها الخوف والشّكّ، فأبدى شيئًا من معالم ذلك الريب؛ لأن الإنسان يخشى ما يقع مع مرور الزمن من الموت أو الفقر، وعطفه الفقر على ريب الزمان يجعل المراد بالريب الموت، كنى بريب الزمان عن

(١) يراجع لسان العرب: ج٥٤٢/١٣ (م هـ م هـ)، ج٤٧٦/١ (س هـ ب)

الموت، فأبان عن حبّه للحياة ورغبته في العدول عن الإغارة التي قد تودي بحياته بعد أن فارقه أصحابه، والكناية بريب الزمان عن الموت استعمال مشهور، قال لبيد ابن ربيعة في أسدٍ قوي أصابه الموت بعد أن كان يصيح بفريسته وينقض عليها كالذنوب المرسل، ويفتك بها بأنيابٍ معوّجةٍ يخالف بعضها بعضاً:

فَأَصَابَهُ رَيْبُ الزَّمَانِ فَأَصْبَحَتْ ... أَنْيَابُهُ مِثْلَ الزُّجَــاجِ النُّصَّلِ[1]

وعطف الفقر يكشف عن رغبةٍ أخرى زاحمت النّفس، وهي الرغبة في الغنى، وهذه تدفعه نحو الإقدام والمضي للإغارة التي قطع لها تلك المفازة وفيها مهامه رملٍ وسهوب، فصار صرد متردداً بين الرجوع خوفاً على النفس من الموت وبين الإقدام للغنى. واللف والنشر يرتب على ريب الزمان المراد به الموت بلاد العدو (بلادُ عدوٍّ حَاضِرٍ)، ويرتب على فقره إن رجع الجدوب وبعده عن أرض قومه بني مقاعس (وَجُدُوبُ وَنَأْيٌ بَعِيدٌ عَنْ بِلادِ مُقَاعِسٍ)، والجدب نقيض الإخصاب[2]، أراد به الصحراء المجدبة التي لا ماء فيها ولا نبت. واللف والنشر هنا مرتب، أعاد أول الفاعلين على أول المفعولين، وأعاد الثاني على الثاني. وَوَصَفَ العدوَّ بما يفيد القرب (عدوٍّ حَاضِرٍ)؛ فعلم أن ذلك الخوف الذي تملك صرداً والتردد في الرجوع أو الإقدام كان حين أشرف على بلاد العدوّ. وتقديم المفعول (رَيْبَ الزَّمَانِ وَفَقْرَهُ) توكيد يشي بحركة الفكر التي انشغلت بما يعود على النّفس من الضر ثُمَّ ربطت به أسبابه (بِلَادُ عَدوٍّ حَاضِرٍ وَجُدُوبُ وَنَأْيٌ بَعِيدٌ عَنْ بِلادِ

(١) البيت من الكامل للبيد بن ربيعة في ديوانه، تحقيق: الدكتور/ إحسان عباس، طبعة وزارة الإرشاد والأنباء الكويتية (١٩٦٢م): ص٢٧٣.

(٢) يراجع الصحاح: ج١/٩٧ (ج د ب).

مُقَاعِسٍ). والمقابلة بين بلاد العدوّ الحاضر (بِلادُ عدوٍّ حَاضِرٍ) وبين بلاد مقاعس النائية (وَنَأْيٌ بَعِيدٌ عَنْ بِلادِ مُقَاعِسٍ) هي مقابلة اثنين باثنين، التمس بها العذر لذلك الصديق الباكي، اجتمع على النفس المقابلة بين بلاد العدوّ الحاضر، وهي من أسباب الموت مع بعد بلاد مقاعس التي تمثّل له الأمن والنعيم، فكان منه البكاء والخوف. ووصفُ النأي بالبعد (وَنَأْيٌ بَعِيدٌ) يزيد البعد بعداً. والخلاص مع الجمع بين هذه المتقابلات نادر فريد. وقد أعاد المعنى بتذييلٍ ختم به البيت (وَأَنَّ مَخَارِيقَ الأُمُورِ تُرِيبُ) حكم على نجح الأمر بالفوز بالغنيمة أو النجاة من العدوّ والعودة إلى بلاده بأنّه من المعجزات التي رابته بمعنى أنها جمعت عليه الخوف والشّكّ، الشّكّ في الحصول، والخوف عند الفشل، وهذا ملحوظ من الجمع بين المقابلات قبل ذلك، وبهذا يظهر أن تسليط الخوف على المقابلات وحدها أو تسليطه على التذييل وحده يفي بالمعنى، لكن الشاعر أطنب بالتذييل؛ لتوكيد المعنى وتقويته في نفس مخاطبه، ولم يسلط الريب على مفعولٍ لإفادة العموم.

فَقُلْتُ لَهُ لا تَبْكِ عَينُكَ إِنَّهَا ... قَضِيَّةُ مَا يُقْضَى لَنَا فَنَؤُوبُ

حال صرد من الخوف والتفكر في إعراض الصحب لا تناسب ما يقبل عليه من الإغارة؛ لأنها تحتاج إلى تماسك النّفس وقوة اجتماعها والعزيمة لإمضاء الأمر، والسُّلَيْك يتدارك الصديق فيرتب على ما رآه من خوفه وتردده دعوته إلى ذلك (فَقُلْتُ لَهُ لا تَبْكِ عَينُكَ)، نهاه عن البكاء، ولم ينهه عن الخوف والحزن، وهذه طريقة مثلى في العلاج، لم يصرح بما أدركه في صرد من الخوف والتردد، فكتمه وأخفاه، وتكلّم عن بكاء عينه الظاهر؛ ليساعده في مقاومة الخوف والتخلّص منه. والسُّلَيْك في هذا المعنى مسبوق بامرئ القيس حين تحدث عن بكاء عمرو بن قميئة في رحلتهما لقيصر:

بَكَى صَاحِبِي لَمَّا رَأَى الدَّرْبَ دُونَهُ ... وَأَيْقَنَ أَنَّـا لَاحِقَـانِ بِقَيْصَرَا

فَقُلْتُ لَــهُ: لَا تَبْكِ عَيْنُكَ إِنّمَــا ... نُحَاوِلُ مُلْكــاً أَوْ نَمُــوتَ فَنُعْذَرَا[1]

ونقلُ السُّلَيْك عن امرئ القيس دليل على متابعته للنتاج الأدبي عند من عاصره ومن تقدمه من الشعراء.

وعلل السُّلَيْك للنهي بأنهما يحاولان قضاء ما يمكن لهما ثُمَّ يرجعان إلى قومهما بما قضي لهما (إِنَّهَا قَضِيَّةُ مَا يُقْضَى لَنَا فَنَؤُوبُ)، والأسلوب كناية عن عدم حمل صديقه على ما يورده الهلاك، يعالج به خوفه من العدوّ الحاضر الذي أشار إليه قبل ذلك (وَخَوَّفَهُ رَيْبَ الزَّمَانِ وَفَقْرَهُ بلادُ عدوٍّ حَاضِرٍ)، وقد أخذ ضابئُ بن الحارِث بن أرطاةَ البُرجُميّ (ت٣٠هـ) المعنى عن السُّلَيْك، فقال:

مَنْ يَكُ أَمْسَى بِالمَدِينَةِ رَحلُهُ ... فَإِنّي وَقَيَّــارٌ بِهَــا لَغَرِيبُ

فَلا تَجْزَعَنْ قَيَّارُ مِنْ حَبْسِ لَيْلَةٍ ... قَضِيَّةَ مَا يُقضَى لنَا فَتؤُوبُ[2]

يعرض ضابئ لحاله حين صار غريباً مع فرسه (قيار) مع شوقه لأرضه وتصبيره للفرس بأنهما يقضيان وقتاً يسيراً ثُمَّ يرجعان إلى أرضهما، وتمثل بقول السُّلَيْك (قضيَّةَ مَا يُقضَى لنَا فَتؤُوبُ).

وضمير القصة (إِنَّهَا) يهدي إلى معاودة صرد للتفكر فيما يعرضه عليه السُّلَيْك؛ لأن فيه إجمالاً لا يوقف عليه إلا بما بعده، وهو يرشده بالإجمال للاستعداد لتلقي المعنى. فإذا نظرنا إلى التفصيل وجدنا فيه سعةً تظهر قدرة الشاعر في الاحتياط لغايته المتمثلة في تصبير صديقه وحمله

---

(١) البيتان من الطويل لامرئ القيس بن حجر في ديوانه بشرح أبي سعيد السكري: ص٤٢٥.

(٢) البيتان من الطويل لضابئ بن الحارث البرجمي في الأصمعيات، تحقيق: أحمد محمد شاكر – عبد السلام هارون، دار المعارف – مصر، الطبعة الثالثة: ص١٨٤.

على نبذ البكاء والخوف والتردد والإقدام على الإغارة التي خرج لها، فتنكير (قَضِيَّةُ) أنسب في التعبير عن ذلك المصير المجهول الذي يسير إليه السُّلَيْك، وقد وصفه بالموصول وصلته (ما يُقضَى لنَا)، وفيها تعميم يدل على حيلة السُّلَيْك في مثل تلك الظروف القاسية، وأنه يتغلب عليها، وينجو، وهذا سرّ عطف الإياب بالفاء (فَنَؤُوبُ). وتقييد القضاء به وصاحبه معاً (يُقضَى لنَا) تسلية لصديقه؛ فإن ما يحدث يقع عليهما معاً، لا ينجو أحدهما ويهلك الآخر، وقد أسند الإياب بعد ذلك لهما (فَنَؤُوبُ)، وفي الأغاني رواية تجعل الرجوع من صرد وحده "فتثوب"(١)، والإثابة العود والرجوع(٢)، وفي الرواية بشارة لصرد أنه أوفر حظًا من السُّلَيْك، وأن احتمال نجاته أقوى. وجملة مقول القول بتمامها محلّها النصب على المفعولية، وهي تبدأ من (لا تَبْكِ عَينُكَ) إلى (ويُخشى عليه مِرية وحروب)، لكن جملة مقول القول تكونت من جملٍ وقع بينها فصل وبين بعضها وصل، وأول ذلك فصل جملة النهي عن التعليل لها لشبه كمال الاتصال، كأن جملة النهي تثير التساؤل، لماذا تنهاني أن تبكي عيني؟ فوقعت جملة التعليل موقع الجواب (إِنَّها قَضِيَّةُ مَا يُقْضَى لَنَا فَنَؤوبُ).

وبعد أن عالج خوف صرد من بلاد عدوٍّ حاضرٍ بأنها قضية ما يقضى عالج خوف صرد من الجدب وفقد الصحب الذي أشار إليه قبل ذلك (وَخَوَّفَهُ رَيْبَ الزَّمَانِ وَفَقْرَهُ بلادُ عدوٍّ حَاضِرٍ وَجُدُوبُ وَنَأْيٌ بَعِيدٌ عَنْ بِلادِ

(١) الأغاني: ج٢٠/٢٤٤.

(٢) يراجع مقاييس اللغة: ج١/٣٩٣ (ث و ب).

مُقَاعِسٍ)، يستطيع أن يكمل الرحلة مع زادٍ وفيرٍ من اللحم المجفّف (لَحْمٌ مُغَرَّضٌ) والماء المخلوط بالتوابل والصباغ (مَشُوبُ)[1]:

سَيَكْفِيكَ فَقْدَ الحَيِّ لَحْمٌ مُغَرَّضٌ ... وَمَاءُ قُدُورٍ فِي الجِفَانِ مَشُوبُ

أكد بالسين كفايتهم من الطعام والماء (سَيَكْفِيكَ)، والتلطّف في ردّ مخاوف صردٍ واضح، يسوق له ما يذهب خوفه من غير أن يعيب عليه أو يهون من شعوره، والفائدة مع هذا أتمّ.

قطع عليه الأمل بلحاق القوم حين عبر بالفقد (سَيَكْفِيكَ فَقْدَ الحَيِّ)، مضوا ولا سبيل لإدراكهم، مع إعظامه لشعور صرد في التعبير عن أصحابه من أهل الحيّ بـ(الحي)، فهو يشاركه ذلك الشعور. ونكر اللحم والماء والقدور (لَحْمٌ مُغَرَّضٌ وَمَاءُ قُدُورٍ) فأفاد الوفرة والكثرة التي تكون بها النجاة من الجدب الذي خوف الصديق الباكي، وجعل اللحم المغرض في الجفان يؤيد هذا المعنى، حيث أفرغ اللحم المغرض المنكر للتكثير في الجفان التي عرفها بالألف واللام ليفيد أنّها الجفان التي يعهدها صديقه، وهي المعدّة للرّحلة. واللف والنشر واضح (لَحْمٌ مُغَرَّضٌ وَمَاءُ قُدُورٍ فِي الجِفَانِ مَشُوبُ)؛ لأن اللحم المغرض يناسبه الجفان، وماء قدورٍ يناسبه مشوب، ولو جاء الكلام على الأصل لقيل: سَيَكْفِيكَ فَقْدَ الحَيِّ لَحْمٌ مُغَرَّضٌ فِي الجِفَانِ وَمَاءُ قُدُورٍ مَشُوبُ. وأظهر حسن الاستعداد للرحلة قبل أن تكون بتجفيف اللّحم (لَحْمٌ مُغَرَّضٌ)؛ وخلط الماء بتوابل وصبغٍ (مَشُوبُ)، وصيغة اسم المفعول دليل على من قام بالشّوب، وفي أدب الكاتب "مَشِيْبُ"[2]، والمراد ماء نقي

(١) يراجع لسان العرب: ج٥١٢/١ (ش و ب)، ج١٩٥/٧ (غ ر ض).

(٢) أدب الكاتب، لأبي محمد، عبد الله بن مسلم بن قتيبة (٢١٣ – ٢٧٦هـ)، تحقيق: محمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان: ص٦٠٥.

حصل من سقوط الثلوج على القدور، "والشِّيبُ: الجِبالُ يَسْقُطُ عَلَيْهَا الثَّلْجُ"(١)، والصيغة تدل على من عرض القدور لمواضع تساقط الثلوج في أوقات البرد من العام ليجتمع فيها الماء النقي. وهذا يجعل كلام صاحب الأغاني وهو يقدم للأبيات محلًّا للنظر، فإنه قال: "...فمرّ بأصحابه حتى إذا انقطعت عنهم المياه قالوا: يا سليك، أهلكتنا ويحك! قال: قد بلغتم الماء، ما أقربكم منه! حتى إذا انتهى إلى قريب من المكان الذي خبأ الماء فيه طلبه فلم يجده، وجعل يتردد في طلبه، فقال بعض أصحابه لبعض: أين يقودكم هذا العبد؟ قد والله، هلكتم، وسمع ذلك ثُمَّ أصاب الماء بعد ما ساء ظنهم، فهم السُّلَيْك بقتل بعضهم ثُمَّ أمسك، فانصرفت عنه بنو عبد شمس في طوائف من بني سعد قال ومضى السُّلَيْك في بني مقاعس ومعه رجل من بني حرام يقال له: صرد، فلما رأى أصحابه قد انصرفوا بكى ومضى به السُّلَيْك..."(٢). وصعلكة السُّلَيْك تدفع أن يكون له طاعة من هذا العدد الكبير من الناس في تلك الرحلة الطويلة؛ لأنه منبوذ خارج على القوم، وسيأتي أن السُّلَيْك حين حذرهم من عدوهم كذبوه في مجرد قولٍ، فكيف تكون منهم طاعة له؟ والبيت مروي في مقاييس اللغة:

"سَيَكْفِيكَ صَرْبَ الْقَوْمِ لَحْمٌ مُعَرَّصٌ ... وَمَاءُ قُدُورٍ فِي الْقِصَاعِ مَشُوبُ"(٣)

قال ابن منظور: "والصَّرْبُ: اللبنُ الحامِضُ. ومُعَرَّصٌ: مُلْقًى فِي العَرْصَةِ ليَجِفَّ، وَيُرْوَى مُغَرَّضٌ أَي طَرِيٌّ؛ وَيُرْوَى مُعَرَّضٌ أَي لَمْ يَنْضَجْ بعدُ"(٤).

(١) لسان العرب: ج١/٥١٣ (ش ي ب).
(٢) الأغاني: ج٢٠/٢٤٣، ٢٤٤.
(٣) مقاييس اللغة: ج٤/٢٦٩ (ع ر ص).
(٤) لسان العرب: ج١/٥١٢ (ش و ب).

وهذه الرواية تضيف للمعنى تهوين الأمر، فهي تقارن بين لبنٍ حامضٍ عند القوم ولحم عند السُّلَيْك وصديقه، واللحم المجفف أعلى، وتظهر طريقة تجفيف اللحم بأنه معرص، بمعنى أنه وضع في العرصة ليجفّف، لكن استعمال القصاع لا يقدم للمعنى المبالغة التي يضيفها استعمال الجفان؛ لأن القصعة تُشْبِع السَّبْعَةَ إلى العَشَرَةِ، والجفنة تشبع أكثر من ذلك(١).

وفصلت جملة الكفاية (سَيَكْفِيكَ فَقْدَ الحَيِّ لَحْمٌ مُغَرَّضٌ...) عما قبلها (لا تَبْكِ عَينُكَ...) لكمال الانقطاع بين الجملتين؛ لاختلافهما خبراً وإنشاءً، فجملة النهي عن البكاء إنشائيّة لفظاً ومعنى، وجملة الكفاية خبريّة لفظاً ومعنى. وفصل بينهما مع كونهما يعالجان خوفاً واحداً؛ لأن الأولى تعالج خوف الصديق من عدوٍّ حاضر، والثانية تعالج خوفه من الجدب.

وبعد أن عالج خوفه من قوة عدوّه الحاضر وخوفه من الجدب حمله على التصبّر وتحمّل المتاعب، فلا يخلو الزمان من السّعادة في وقتٍ والشّقاء والتّعب في وقتٍ آخر:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الدَّهْرَ لَوْنَانِ لَوْنُهُ ... وَطَوْرَانِ بِشْرٌ مَرَّةً وَكَذُوبُ

فَمَا خَيْرٌ مَنْ لا يرتجي خَيْرَ أَوْبَةٍ ... وَيُخْشَى عَلَيْهِ سَرْيَةٌ وَحُرُوْبُ

رَدَدتُ عَلَيهِ نَفْسَهُ فَكَأَنَّمَا ... تَلاقَى عَلَيهِ مِنْسَرٌ وَسرُوبُ

استفهم لتقرير الصديق عن حال الإنسان مع مرور الزمان، يحصل له من الأسباب ما يسّر بها في حينٍ ويحصل له من الأسباب ما يأسى بها في حينٍ آخر، يحمل صديقه بالاستفهام التقريريّ على التحقّق والتّثبّت من تلك

(١) يراجع فقه اللغة وسر العربية، لأبي منصور، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي (ت٤٣٠هـ)، تحقيق: عمر حافظ سليم، شركة القدس للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى (١٤٣١هـ - ٢٠١٠م): ص٢٥٢.

الحقيقة الثّابتة. وسرّ التّحقق والتّثبّت أنّ الاستفهام في ظاهره طلب من صديقه عن رؤية حالي الدهر من الإسعاد والإشقاء، أحصل المخاطب على تلك الرؤية؟ وهو يعود إلى نفسه للبحث عن تلك الرؤية، فيتحقق له تحصيلها؛ لأنها من الثوابت في كلّ نفس. وقدّم خبر المبتدأ الثاني عليه (لونان لونهُ) لتأكيد تلك الحقيقة الثابتة، ولو جاء الكلام على الأصل لقيل: ألم تر أن الدهر لونهُ لونان. وأطلق اللونين فدلّ على أنّهما البياض والسواد، وتقسيم أطوار الزمان إلى بشر وكذوب في المصراع الثاني للبيت يساعد على ذلك. وعطف بالواو للتشريك في الحكم الإعرابي ووجود الجامع بين الجملتين، فالجملة الأولى (لَوْنَانِ لَوْنُهُ) في محل رفعٍ خبر للدهر، والجملة الثانية (وَطَوْرَانِ بِشْرٌ مَرَّةً وَكَذُوبُ) في محل رفع معطوفة عليها لتشترك معها في حكم الإعراب، كأنه قيل: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ الدَّهْرَ لَوْنَانِ لَوْنُهُ – وَأَنَّ الدَّهْرَ طَوْرَانِ بِشْرٌ مَرَّةً وَكَذُوبُ)، والإيجاز بحذف الدهر مع (أنّ) في الجملة الثانية على هذا التقدير لا يخفى، وأما الجامع فواضح؛ لأنه عطف المسببات على الأسباب، تكلّم عن الأسباب في المصراع الأول (لونان لونهُ)، وتكلّم عن المسببات في المصراع الثاني (وطَوران بشْر مرة وكَذوب)، فمن الزمان ما يكون فيه من الأسباب ما يسعد به الإنسان، ومن الزمان ما يكون فيه من الأسباب ما يشقى به الإنسان. والإيجاز بحذف تمييز الكذب (وَطَوْرَانِ بِشْرٌ مَرَّةً وَكَذُوبُ)، يلمح إلى إحساسه بكثرة مرات كذب الدهر، فيصحّ أن يكون مراده بِشْرٌ مَرَّةً وَكَذُوبُ مرات، لكنه حذف التمييز، فبقي الكلام محتملاً للإفراد والتكثير.

ووصل تصبير الصديق تحذيره من عاقبة الخوف الذي يحمل صاحبه على العجز عن النفع المكني عنه بجملة نفي الارتجاء (فَمَا خَيْرٌ مَنْ لا يرتجي خَيْرَ أَوْبَةٍ)، ويحمل صاحبه على العجز عن دفع الضر المكني عنه

بجملة الخشية (وَيُخْشَى عَلَيهِ سَرْيَةٌ وَحُرُوبُ). نكر الخير في سياق النفي فأفاد العموم، نفى عموم الخير عمن لا تطمح نفسه للرجوع إلى قومه بخيرٍ يعمهم، فيكون رجوعه خير رجوع. وهو يهديه بهذا إلى ما يتلو رجوع الغائبين من الحديث بين الناس، فمن رجع بخيرٍ وظهرت النعمة عليه تحدثوا عنه بذلك، ومن رجع فقيراً كما خرج ظهرت خيبة أمله وتحدثوا عنه بذلك. والرجاء يظهر بدلالته وصيغته الدالة على التكرر (يرتجي) المبالغة في الحرص على تحصيل الخير؛ لأنّه يكون في المحبوب متوقع الحصول، بخلاف المتمنى الذي يكون في المحبوب بعيد الحصول. ونفي الارتجاء بـ(لا) التي ينفى بها الحال والاستقبال تقطع بأنه لا ينهض لما ينفع في حاضره أو مستقبله. والإضافة (خَيْرَ أَوْبَةٍ) تجعل نفي الخير المستفتح به الأسلوب عن إحراز أعلى درجةٍ في الفضل. وجملة الخشية (وَيُخْشَى عَلَيهِ سَرْيَةٌ وَحُرُوبُ) تجعله عالةً على غيره، والبناء للمفعول (يُخْشَى) يظهر كثرة من تكون منهم الخشية، فاقت كثرتهم الحد فلم يقدر على تعيين واحدٍ بعينه، هو دائماً محلّ مراقبتهم وملاحظتهم خوفاً عليه من الهلاك، يخشى عليه من سيره ليلاً مرةً واحدةً، كما أفاد اسم المرة (سَرْيَةٌ)، والتنكير يفيد تهوينها ويجعل المراد بالسرية أقل سيرٍ يمكن؛ وزاد بيان الضعف، فجعله لا يعتمد عليه في الدفاع عن قومه إن اعتدى أحد على أرضهم، كما أفاد لفظ الحرب (وَحُرُوبُ)، وعطف الحروب على السير ليلاً يمنع حمل الحروب على إطلاقها من السير للعدوّ أو الدفاع عن الأرض، ويقيده بالدفاع عن الأرض وحده، وهذا دليل الخيبة؛ لأنه لا يوجد من يقوى على الحرب، والجمع مع التنكير (حُرُوبُ) يكشف كثرة الاعتداء على أرض ذلك الضعيف الذي يخشى عليه. ووصلت جملة الخشية (وَيُخْشَى عَلَيهِ سَرْيَةٌ وَحُرُوبُ) بجملة صلة الموصول (لا يرتجي خَيْرَ أَوْبَةٍ) للتوسط بين الكمالين مع عدم وجود

المانع؛ لاتفاقهما في الخبريّة لفظاً ومعنى، وحسَّن الوصل الفعلية في الجملتين. ولا يخفى حسن الترتيب بينهما، فالجملة الأولى فيها بيان العجز عن طلب النفع، والجملة الثانية تفيد العجز عن دفع الضر، والوصل بينهما يجعل الحاصل منهما متحقق في موصولٍ واحدٍ، وهذا أدعى لدفع الخوف الذي يورد صاحبه تلك المهالك.

وهذا التفنّن في إقناع صردٍ لمواصلة الرحلة التي بدأها، ونبذ الخوف عاد بالنفع، فقد نهض من سكونه وتحركت فيه القوة التي عطلها الخوف قبل ذلك (رَدَدتُ عَلَيهِ نَفْسَهُ)، مفارقة النّفس يكنى بها عن الموت، وردّها يكنى به عن بعث الحياة. وفصلت جملة ردّ النفس (رَدَدتُ عَلَيهِ نَفْسَهُ) عن جملة القول بتمامها لشبه كمال الاتصال، كأنه قيل: هل استجاب صرد لقولك ونبذ الخوف وتحرك للإغارة؟ فأجيب بجملة ردّ النفس (رَدَدتُ عَلَيهِ نَفْسَهُ). ولطف المعنى يدفع الشاعر لاستئناف تصويرٍ مؤكّدٍ يكشفه ويجليه (فَكَأَنَّمَا تَلاقَى عَلَيهِ مِنْسَرٌ وَسرُوبُ)، ومنسر: قطعة من الجيش تمرُّ أمام الجيش الكبير، والسروب: قطع الخيل وغيرها، يقال: سَرّبْ عليه الخيلَ، وهو أن يبعث عليه الخيلَ سُرْبَةً بعد سُرْبَةٍ[١]، نهض صرد بقوّةٍ، كأنّما أفزعه عدوّ هجم بكتيبةٍ توالت بعدها قطع الخيل عليها فرسانها؛ لأنّ عطفها على منسر المراد بها قطعة جيش يجعل الخيل لا تتوالى وحدها، بل يتوالى عليها فرسانها المحاربين، وحركة صرد في تلك الحال هي البحث عن السّلاح للدّفاع، وهذا مراد للشّاعر الذي خرج للإغارة والسلب، وحمل السّلاح والاستعداد به للدّفاع هو الأنسب لذلك. والموصول الحرفيّ بعد كأنَّ (فَكَأَنَّمَا) إجمال يهدي إلى أن ما يساق بعده من تصويرٍ هو تفصيل تقريبيّ للصورة

(١) يراجع الصحاح: ج٢/٨٢٧ (ن س ر)، ج١/١٤٧ (س ر ب).

التي طويت في أوغل الموصولات إبهاماً (ما)، ولو وقف عندها وحدها لذهبت النّفس في تفسيرها كل مذهبٍ، ولا يجليها إلا منشئ الإجمال، والقول بزيادة (ما) يحجب الجمال البلاغي الذي أضافه هذا الحرف. وتوكيد المعنى واضح، حيث أشير إليه مرتين: بالإجمال، والتفصيل، ووقوع هذا في حيز (كأنّ) توكيد بعد توكيد ينبئ عن دهشة الشاعر حين رأى من صديقه نشاطاً وحركةً لمواصلة الإغارة حتى يفوز بخير إربة كما حفزه السُّلَيْك، ولعلّ دهشته كانت سبباً في استئناف التصوير بالفاء بعد ما يفيد القوة والحركة (رَدَدتُ عَلَيهِ نَفْسَهُ). والإسراع إلى الإغارة من الصديقين بعد هذا النشاط متوقع، وقد ساقه السُّلَيْك مستأنفاً بالفاء ليسجل للسرعة التي كان بها الانتقال من الخوف إلى النشاط والحركة التي أعقبها النزال والطعان:

فَمَا ذَرَّ قَرْنُ الشَّمْسِ حَتَّى أَرَيْتُهُ ... قِصَارَ المَنَايَا وَالفُؤَادُ يَذُوبُ

وَضَارَبْتُ عَنْهُ القَوْمَ حَتَّى كَأَنَّهُ ... يُصَعِّدُ فِي آثَارِهِمْ وَيَصُوْبُ

وَقُلْتُ لَهُ خُذْ هَجْمَةً حِمْيَرِيَّةً ... وَأَهْلاً وَلَا يَبْعُدْ عَلَيْكَ شَرُوْبُ

اختار للإغارة أول الصباح؛ ليفجأ القوم بعد وقت الراحة والنوم، وأشار إليه بكونه قبل طلوع الشمس (فما ذرّ قرن الشمس حتى أريته)، وقرن الشمس: أول طلوعها[1]. وكنى عن تفوقه على القوم بقصر وقت المعركة (حتى أريته قصار المنايا)، يسرع الموت إلى القوم الذين لم يستعدوا للقتال، بادرهم السُّلَيْك وأزهق أرواحهم. وكنى عن شدة الفزع بذوب الفؤاد (وَالفُؤَادُ يَذُوبُ)، والفؤاد هو القلب مشتّق من التفؤد، ومعناه في الأصل شدة الاحتراق[2]، ويوصف القلب بذلك إذا تتابعت عليه الأفكار وتكاثرت، والمقام

(١) يراجع لسان العرب: ج١٣/٣٣٢ (ق ر ن).

(٢) يراجع مقاييس اللغة: ج٤/٤٦٩ (ف أ د).

يوجهه هنا إلى تكاثر الأفكار والظنون على القلب طلباً للفرار من شدّة القتال الذي أفقد القلب السيطرة من هول ما فاجأ أصحابها، فكأنّها من شدّة حرارتها ذابت. وفي الأغاني لأبي الفرج "والغُبَارُ يَثُوْبُ"(١)، كنى عن قوّته بكثرة الغبار، شبهت أرض المعركة بحوض ماء امتلأ، يقال: ثابَ الحَوْضُ يَثُوبُ ثَوْباً وثُؤُوباً: امْتَلأَ أَو قارَبَ(٢)، وصيغة المضارع تفيد زيادة الغبار واطراده، ويبنى على هذه القوة فرارهم أمامه، وقد صرّح به بعد ذلك. وكنى عن فرط شجاعته بما يفيد أنه كان في المقدمة (وضاربتُ عنه القوم)، فالسُّلَيْك في المقدمة وصرد خلفه، وأكد على قوته وشجاعته بإسراعه خلف القوم مصعداً ومصوباً (كَأَنَّهُ يصعّد في آثارهم ويصُوب)، والتصعيد والتصويب معناه الارتفاع والهبوط، وسبب تصعيد صرد وتصويبه وفرة القتلى أمامه بعد أن أرداهم السُّلَيْك الذي يسير في المقدمة، فهو يقفز كلما وجد قتيلاً حتى لا يتعثر به، وهذا يلتقي بسرعة إرداء القتلى المشار إليها في (قصار المنايا)، كما أن الإسراع في أثر القوم يلتقي بكثرة الغبار المشار إليها في (والغبار يثوب). فإذا أضيف إلى ذلك أن هيئة التصعيد والتصويب تلحظ في السحاب حين تعصف الرياح ظهر التشبيه في أتمّ صوره، شبه صرداً في حركته مسرعاً يحاول تخطي القتلى فيصعد ويهبط بسحابٍ في يومٍ عاصفٍ يسرع فيتداخل بعضه في بعضٍ فيكون منه ارتفاع وهبوط. وفي الأغاني "حَتَّى كَأَنَّمَا يُصَعِّدُ فِي آثَارِهِمْ وَيَصُوبُ"(٣)، وعليها يكون التصعيد والتصويب تفصيل تقريبيّ أورده السُّلَيْك لصورة صديقه بعد إجمالٍ دلّ على غيبة عقله

(١) الأغاني: ج٢٠/٢٤٤.

(٢) يراجع لسان العرب: ج١/٢٤٣(ث و ب).

(٣) الأغاني: ج٢٠/٢٤٤.

للبحث عنها حين أجملها في اسم الموصول (ما) بعد أداة تشبيه تفيد تأكيد الشبه بين هيئة صردٍ في إسراعه وتخطيه للقتلى بهيئة السّحاب المتدافع المتداخل حين تعصف الرياح.

ودفاع السُّلَيْك عن صديقه يوهم أن صرداً كان خلف السُّلَيْك لأن آثار الخوف لم تفارقه، والشّاعر يعالج هذا بما يفيد أن السُّلَيْك وزّع الأدوار بينه وبين صديقه، فالسُّلَيْك في الصدارة يتولى الهجوم وحصد الأرواح، وصرد خلفه ينتظر الوقت المناسب ليمرّ إلى الإبل يسوقها، وقد أمره به بعد ذلك:

وَقُلْتُ لَهُ خُذْ هَجْمَةً حِمْيَرِيَّةً ... وَأَهْلاً وَلَا يَبْعُدْ عَلَيْكَ شَرُوبُ

هذا دليل مراقبة السُّلَيْك لها قبل الإغارة، حدّد مكانها كما هو مفهوم من توجيه صرد نحوها، وحدد عددها بأنه بين الثلاثين والمائة كما هو مفهوم من التعبير بهجمة[1]، وحدد أنواعها في تقسيمها إلى حميرية، وأهلية، فالحميرية منسوبة لحمير باليمن، والأهلية التي لم تجلب من خارج أرض القوم، والحميرية أجود النوعين، وهذا سرّ تقديمها على الأهلية. والتنكير (هَجْمَةً حِمْيَرِيَّةً وَأَهْلاً) إبهام للعدد، لكن المقام يوجه التنكير لإفادة التكثير. والاستقصاء واضح في تقسيم الإبل إلى حميرية وأهليه، وهو يظهر تمام الإحاطة. وحسن سياسة الإبل والعلم بها يبديه التوجيه لكيفية قيادة القطيع (وَلَا يَبْعُدْ عَلَيْكَ شَرُوبُ)، والأصل فيه أن الشريبة من الغنم هي التي تُصْدِرُها إذا رَوِيَتْ فَتَتْبَعُها الغَنَمْ[2]، يوجه صرداً ليكون قريباً من الناقة أو البعير الذي يقود القطيع، ليوجهه إلى حيث يريد الفرار؛ لأن الإبل تتبعه فيسهل الأمر عليه. ونوّع في قوله، فاستعمل أسلوب الأمر عند طلب

(١) يراجع لسان العرب: ج١٢/٦٠٢ (هـ ج م).

(٢) يراجع الصحاح: ج١/١٥٣ (ش ر ب).

الحصول على الإبل (خُذْ هَجْمَةً حِمْيَرِيَّةً وَأَهْلاً)، واستعمل أسلوب النهي عند طلب متابعة البعير الذي يقود القطيع (وَلَا يَبْعُدْ عَلَيْكَ شَرُوبُ)؛ لأن أسلوب النهي يصلح شيئاً في أسلوب الأمر. والأسلوبان معطوفان بالواو وهي لا تقتضي الترتيب إلا أن الكلام لا يصلح إلا بترتيب ما جاء في أسلوب النهي على ما جاء في أسلوب الأمر، لابدّ أن يحصل على القطيع أولاً، ثُمَّ يلاحظ البعير الذي تتبعه الإبل فيكون قريباً منه ليوجهه نحو الفرار، وهذا يقيد مطلق الجمع الحاصل من العطف بالواو بكونه بمعونة السياق والمقام، ومما يدلّ على ذلك تقديم الإبل الحميرية على الإبل الأهلية (خُذْ هَجْمَةً حِمْيَرِيَّةً وَأَهْلاً) مع أنهما معطوفان بالواو، إلا أن تقديم الحميرية أنسب بالفرار بالإبل؛ لأنها جلبت من خارج تلك الأرض، ولها خبرة سابقة بالصحراء، بخلاف الإبل الأهلية التي نشأت في تلك الأرض، ولم تخرج منها، فإذا حصل على الحميرية وقدمها اتبعتها غيرها من الإبل، وهنا يظهر أن الشروب الذي تتبعه الإبل سيكون من الإبل الحميرية، وتتكشف فائدة الاستقصاء بتقسيم الإبل إلى حميرية وأهلية.

والعطف بالواو على جملة جواب الشرط الجازم يُدخل مضاربة القوم، وما كان من تصعد وتصوب، والأمر بالحصول على الإبل، والتوجيه لكيفية قيادة القطيع؛ في حيز الشرط بمعنى أن كل هذه الأمور معلقة بجملة الشرط (فَمَا ذَرَّ قَرْنُ الشَّمْسِ)، وهذ يدل على قوة السُّلَيْك وفتكه وحيلته وشجاعته، فقد فعل كل هذا قبل أن تشرق الشمس.

وحديث السُّلَيْك عن حماية صديقه يحمل المخاطب على التعجب من صعلوكٍ خرج للسرقة كيف يكون منه هذا؟ والشاعر يلحّ على المعنى، ويلحق بالحدث الذي تناوله موقفاً آخر لنصرة صاحبه والدفاع عنه؛ ليقرر أن هذه حاله دائماً:

وَلَيلَةَ جَابَانٍ كَرَرْتُ عَلَيْهِمُ ... عَلَى سَاعَةٍ فِيهَا الإِيَابُ حَبِيبُ
عَشِيَّةَ ضَلَّتْ لِلحَرَامِيِّ نَاقَةٌ ... بِحَيَّهَلاَ يَدْعُو بِهَا فَتُجِيبُ
فَضَارَبْتُ أُولَى الخَيلِ حَتَّى كَأَنَّمَا ... أُمِيلُ عَلَيهَا أَيْدَعٌ وَحَبِيبُ

يقول لمن يتعجب من دفعه عن صديقه: إنه كرّ على أهل جابان في وقتٍ كان الرجوع محبباً إلى نفسه، وكان سبب ذلك أن ناقة صديقٍ له من بني حرام ضلّت منه، فطلبها فوقع أسيراً لأهل جابانٍ باليمن(١)، فاستنقذه السُّلَيْك وعاد به.

قدم الظرف (وَلَيلَةَ جَابَانٍ)؛ لأنه مطالب بذكر أحداث تؤكد على دوام دفاعه عن صحبه، والأحداث تكون في زمنٍ فبدأ به، وأضافه إلى المكان الذي وقع فيه الحدث (وَلَيلَةَ جَابَانٍ)، فجمع بين ظرفي الزمان والمكان في صورة مضافٍ ومضافٍ إليه، ولو جاء بالكلام على ترتيبه في الأصل لطال وفات عليه بلاغة إيجاز الحذف مع بلاغة التقديم؛ لأن أصل الكلام قبل التقديم والحذف: واذكر أهل جابان ليلة كررت عليهم. وتقييد الكرّ على أهل جابان بكونه ليلاً طباق لقتاله المتقدم مع صردٍ حين أراه قصار المنايا في الصبح قبل أن تشرق الشمس. والواو المستفتح بها البيت هي دليل ربط البيت بما قبله، فإنه ساق حديثاً ظهر فيه وفاؤه لصردٍ، وهو يحمل المتلقي على التعجب، فكأنه قال: لا تتعجب، واذكر أهل جابان ليلة كررت عليهم، وصل بين الأمر والنهي للتوسط بين الكمالين مع عدم وجود المانع؛ لاتفاق الجملتين إنشاءً. وأعاد ضمير الجمع على المكان (كَرَرْتُ عَلَيْهِمُ)، فعلم أنه أراد بالمكان ساكنيه، أوقع الإسناد على المكان وهو يريد ساكنيه على طريقة

(١) معجم البلدان، لشهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، دار صادر – بيروت (١٣٩٧هـ – ١٩٧٧م): ج٢/٩٠.

المجاز العقلي بعلاقة المكانية؛ ليظهر المبالغة في الكرّ الذي وقع منه على عموم أهل جابان، وتضرر منها كلّ شيء من يعقل وما لا يعقل. وألحق بالمبالغة ما يفيد أن القتال كان فجأة منه، ولم يسبق له قصد واستعداد، وأن نفسه كانت تنشغل بالرجوع إلى أرضه (عَلَى سَاعَةٍ فِيهَا الإِيَابُ حَبِيبُ)، وهذا يقوي المبالغة المستفادة من المجاز العقلي، إذا كان القتال الذي طال جابان وتضرر منها كل شيءٍ كان مع عدم قصده ورغبته في الرجوع إلى أهله، فكيف يكون قتاله إن قصد ذلك وهيأ نفسه لعدم العودة إلا مع الظفر؟ وعاد إلى الزمن فجعله في ساعةٍ من الليلة التي قدمها في أول البيت (عَلَى سَاعَةٍ)، وهذا يضاعف المبالغة ويقويها؛ لأن قصر زمن المعركة يهدي إلى قوته المفرطة في مواجهة خصم لا طاقة له بالقتال، ولا بد من متابعة الشاعر في التعبير بالزمن؛ لأنه شغله، وجعله مدخلاً لبناء المعنى والوصول إليه وتحصيله. وأفاد الظرفية بحرف الاستعلاء (عَلَى سَاعَةٍ) ليدل على فتوته وأنفة نفسه من هذا القتال الهين، وكان الأصل أن يقول: في ساعةٍ. وتقديم الظرف (فِيهَا الإِيَابُ حَبِيبُ) توكيد لميل النفس ورغبتها في الرجوع، ولو جاء الكلام على الأصل لقيل: الإِيَابُ حَبِيبُ فِيهَا. وعبر بالإياب عن الرجوع، فنبه على غايةٍ مقصودةٍ تعلقت بها النفس، وهي القرار في داره وأهله؛ لأن الإياب يكون إلى منتهى القصد، والرجوع يكون لذلك ولغيره، فيصح أن يقال: رجع إلى بعض الطريق، ولا يصح أن يقال: آب إلى بعض الطريق[١]. وقيد الإياب المحبب إلى نفسه بكونه في الساعة التي أشار إليها، فعلم أنه كان قريباً من أرضه، وبينه وبينها وقت يسير، بعد أن

(١) يراجع الفروق اللغوية لأبى هلال العسكريّ ، مكتبة القدسي – القاهرة (١٣٥٣هـ): ص٢٥٠.

فهم من التركيب أن القتال كان في طريق عودته من سفرٍ أبعد مثل ذلك السفر الذي تحملته النفس للحصول على إبلٍ قطع لها صحراء واسعة فيها مهامه رمل وسهوب، وتتصف بأنها ذات نأي بعيد عن بلاد مقاعس. ومحبة الإياب على صيغة الصفة المشبهة الدالة على الثبوت (حَبِيبُ)، فشعور النفس بالميل للرجوع ثابت ولازم لها، ولا يصح حمل الصيغة (حَبِيبُ)، على أنها بمعنى مفعول؛ لأن المحبة المشار إليها صفة الإياب، ولم يصطنعها الشاعر، بل هجمت على النفس ولازمتها من غير أن يقصد تلك المحبة ويطلبها بنفسه.

وبعد أن جعل الكر في ليلةٍ، وأبان أنه كان في ساعةٍ من تلك الليلة، جعل تلك الساعة بالعشي (عَشِيَّةَ ضَلَّتْ لِحَرَامِيٍّ نَاقَةٌ)، وفي الأغاني:

"عَشِيَّةَ كَرَّتْ بِالحَرَامِيِّ نَاقَةٌ ... بحيّ هلاً تُدعى به فتجيب"(١)

وباء الإلصاق على هذه الرواية (بالحراميّ) تبدي فرار الناقة أمام الحرامي وهو يسرع وراءها، كأنه وناقته شيء واحد يتحرك، يتبعها في كل وجهةٍ. والإسناد يبدي أنها هي التي تتحكم في الوجهة التي تسير فيها (ضَلَّتْ لِحَرَامِيٍّ نَاقَةٌ)، الناقة هي التي ضلت به، وهذا سرّ دهشة الشاعر التي أعلنها بالتقديم (عَشِيَّةَ ضَلَّتْ لِحَرَامِيٍّ نَاقَةٌ)، ولو جاء بالكلام على الأصل لقال: عَشِيَّةَ ضَلَّتْ نَاقَةٌ للحَرَامِيٍّ. وكلال سعيه ظاهر في ندائه للناقة (بِحَيَّهَلاَ يَدْعُو بِهَا فَتُجِيبُ)؛ لأن إسراعه خلفها يزيد من نفورها وهربها، وصياحه خلفها يزيد من فزعها فتبالغ في الفرار، ورواية الأغاني المتقدمة تشير إلى هذا (كرّت بالحراميّ)، وقد أجهدته حتى طافت به كل موضع يتصور من ذلك المكان كما هو واضح من الجوب (فَتُجِيبُ)، يقال: "جبت

(١) الأغاني: ج٢٠/٢٤٥.

البلاد أجوبها وأجيبها، واجتبتها، إذا قطعتها"[١]، والصيغة تجعلها تكرر المرور على مواضع مرت بها في رحلة فرارها، والفاء دليل سرعة فزعها كلما تكرر منه النداء، وهذا يزيد من شقائه وتعبه، لكنه يسرع ليدركها (يَدْعُو بِهَا)، فدعاؤه كان ملاصقاً لها كما أفادت تعدية الدعاء بالباء مع أنه يتعدى بنفسه، فيصح أن يقال: يدعوها فتجيب، لكن التعدية بالباء كشفت قربه منها الدال على سرعته تمسكاً بها. وخطابها خطاب من يعقل (حَيَّهَلاَ) يشي بفرط رغبته في الحصول عليها؛ لأنه لا يدعوها للتوقف، لكن يدعوها لسرعة الإقبال عليه كما أفاد اسم الفعل (حَيَّهَلاَ)، فهو مركب من كلمتين: (حَيَّ)، بمعنى أَقبِلْ، و(هَلا)، بمعنى أَسرِعْ[٢]، وسرّ تقديمه في التركيب التعجيب من رغبة الحرامي في إدراك الناقة والحصول عليها، وكان الأصل أن يقال: يَدْعُو بِهَا بِحَيَّهَلاَ فَتُجِيبُ، ورواية الأغاني المتقدمة للبيت تعيد الضمير على اسم الفعل مع تنوينه (بِحَيّ هَلاً تُدْعَى بِهِ)، والفرق بين الروايتين أن رواية الإسكان (بِحَيَّهَلاَ) حكاية للفظ الحرامي، حيث كان يقف بعد كل مرةٍ يدعو الناقة، وأما رواية التنوين فهي تفيد التنكير المنبئ عن الكثرة، قال ابن منظور: "وَيَجُوزُ فحَيَّهَلًا، بِالتَّنْوِينِ، يُجْعَلُ نَكِرَةً"[٣]. وناسب الكثرة المستفادة من التنكير على رواية التنوين بناء الفعل لما لم يسم فاعله (بِحَيّ هَلاً تُدْعَى بِهِ)؛ لينبئ عن كثرة الدعاء الذي تكرر مع تواليه في كل جهةٍ فرت فيها الناقة، حتى يخيل للسامع أن الدّعاء كان من غير واحدٍ في جهاتٍ شتّى. وقد انتهت به بين أهل جابان فوقع أسيراً مع ناقته، ولم يصرّح الشّاعر

(١) الصحاح: ج١/١٠٤ (ج و ب).
(٢) يراجع لسان العرب: ج١١/٧٠٧ (هـ ل).
(٣) الصحاح: ج٥/١٨٥٣ (هـ ل ل).

بذلك، لكنه اقتضب فنقل الكلام من تركيب التعجيب (بِحَيَّهَلاَ يَدْعُو بِهَا فَتُجِيبُ) إلى الكلام عن قتال السُّلَيْك لأهل جابان دفاعاً عن صديقه الحرامي (فَضَارَبْتُ أُولَى الخَيلِ...)، وهذا يستوقف المتابع للكلام، وينبه عقله إلى إيجازٍ بحذف جمل بين ما يدل على السعي خلف الناقة وما يدل على القتال، وهو حين يدير فكره يدرك أن أصل الكلام: بِحَيَّهَلاَ يَدْعُو بِهَا فَتُجِيبُ، فوقع في أسر أهل جابان، فطلبتُه، فلما علمتُ ضَارَبْتُ أُولَى الخَيلِ. ومعلوم أن شرط الحذف أن تنصب له قرينة تهدي إليه، وتوقف المتلقي على الكلام المحذوف. وإنما دعى الشاعر إلى هذا الإيجاز أن ما كان مع الحرامي حدث يلحقه بما قبله من دفاعه عن صردٍ؛ ليظهر أنه دائم الدفاع عن الصديق. وفي معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع:

"عَشِيَّةَ ضَلَّتْ بِالحَرَامِيّ نابه ... بِشس صُدى يَدْعُونَنِي فَأُجِيبُ"(١)

"والشَّسُّ والشُّسوسُ: الأَرض الصُّلْبَةُ الْغَلِيظَةُ الْيَابِسَةُ الَّتِي كأَنها حَجَرٌ وَاحِدٌ"(٢)، وصدى بالقصر، ركية ماء ليس عند العرب أعذب من مائها(٣)، أراد أن الناقة ضلت عند إقباله على الركية ليتزود من الماء. والاستعانة بالسُّلَيْك في هذه الرواية فيها إيجاز بحذف سبب دعائه، ولو جاء الكلام على الأصل لقيل بعد تقدير المحذوف: يدعونني لإحاطة العدوّ به. وعطف على الدعوة وما قدر معها من إحاطة العدو إجابة دعائه (فَأُجِيبُ)، والعطف

(١) معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، لأبي عبيد، عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي، تحقيق : دكتور/ جمال طلبة، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى (١٤١٨هـ – ١٩٩٨م): ج١/٩٠، ج٤/٨٤.

(٢) يراجع لسان العرب: ج٦/١١٢ (ش س س).

(٣) يراجع معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع: ج١/٩٠، ج٤/٨٤.

بالفاء دليل سرعة الإجابة، وهو يهدي إلى الشجاعة التي تفهم من عطف مضاربة أولى الخيل على الإجابة (يَدْعُونَنِي فَأُجِيبُ فَضَارَبْتُ أُولَى الخَيلِ).

ونلحظ غرور السُّلَيْك بشجاعته في الكناية عن خوف أهل جابان وفرارهم بمضاربة أولى الخيل (فَضَارَبْتُ أُولَى الخَيلِ)، مع ما في الفاء من الدلالة على سرعة هجومه عليهم، عبر عن الفرسان راكبي الخيول بالخيل على طريقة المجاز المرسل بعلاقة المجاورة، وسرّ المجاز أن الخيل تقتحم انقياداً للفرسان، فيلحظ منها القوّة والسّرعة فيحصل الخوف والرّهبة، وجعل القتال واقعاً على أولى الخيل يظهر أن قوة السُّلَيْك فاقت قوة الفرسان، والمفاعلة في أول البيت تبشّر بذلك (فَضَارَبْتُ)؛ لأنها جعلت النزال بين قوتين: السُّلَيْك، وأولى الخيل، وهذا يهدم ما يحصل من المجاز المرسل من إفادة الخوف والرهبة والسرعة والقوة من الخيل؛ لأن السُّلَيْك فاقهم في القوة والسرعة فألقى الخوف والرهبة في قلوبهم، فلم يقع القتال بينه وبين أصحاب الخيل كلهم، لكنه وقع بينه وبين أوّل ما واجهه منهم، وفرّ الباقون حرصاً على حياتهم لفرط بأسه وفتكه بعدوّه. وحرف الغاية (حَتَّى) دليل صبره في تلك المعركة؛ لأن معناه: إلى أن، فيكون التقدير: فَضَارَبْتُ أُولَى الخَيلِ إلى أن، والغاية المتوقعة مكني عنها بصبّ الزعفران والحناء على الخيل (كَأَنَّمَا أُمِيلُ عَلَيهَا أَيْدَعٌ وَصَبِيبُ)، كنى عن إراقة دماء الفرسان على الخيول بصب الزعفران والحناء على الخيل[١]. وتوصل إلى المعنى بالتشبيه ليعلم أنّه لا ينقل الصورة نقلاً تامًّا، بل يقربها، فشبه سيلان دماء المقاتلين على الخيل بصب الزعفران والحناء من وعاء ممال، وسرّ التشبيه الكنائي الدلالة على ثبات أثر الدماء عليها أمارة على هزيمة الفرسان. والتشبيه بحرف التوكيد

(١) يراجع الصحاح: ج٣/١٣١٠ (ي د ع)، ج١/١٦٠ ، ١٦١ (ص ب ب).

(كَأَنَّ) إعلام بقوة الشبه بين طرفي التشبيه، والإجمال في الموصول الحرفي (ما) ثُمَّ تفصيله دليل على أن الصورة الواردة في التشبيه صورة تقريبية للمعنى، وأن الواقع لا يمكن أن يوصف على حقيقته، فلجأ الشاعر إلى تقريبه بالتشبيه، ودلّ على أنّه أعياه عن التعبير عن تمام الإحاطة بالإجمال أولاً في (ما)، ثُمَّ تفصيله بعد ذلك. وتنكير ما يفيد اللون (أَيْدَعٌ وَصَبِيبُ) يظهر دقة التصوير، فهو مبهم يناسب خيال السّامعين مع كثرتهم، كل واحدٍ يعرف لدقة اللون في الأيدع والصبيب درجة تناسب بيئته. وحمل (ما) في مثل هذا الاستعمال على الزيادة قال بها النحاة؛ لأنهم اشترطوا للموصول صلة تناسبه تشتمل على ضمير يعود للموصول، لكن الأسلوب يجيز أن يكون للموصول تفصيلاً يوضح إجماله مع اشتمال التفصيل على ضميرٍ يعود على الموصول. وبناء الفعل لما لم يسم فاعله (أُمِيلُ) يصرف الذهن عن الفاعل، ويركز على مباشرة الحدث. وتقديم متعلق الفعل على نائب الفاعل يسهم في توكيد المعنى الذي ساقه الشاعر من خلال الصورة (أُمِيلُ عَلَيهَا أَيْدَعٌ وَصَبِيبُ)، لا يخطر على بال الرائي للخيل أن اللون الذي عمها دماء مقاتلين سبقت لهم يد السُّلَيْك، بل يحسبها خليط من الزعفران والحناء صب على الخيل.

(٣) تصوير شجاعته وإقدامه

(أ) هجومه على بني كنانة

[من الوافر]

سَمِعْتُ بِجَمْعِهِمْ فَرَضَخْتُ فِيهِمْ ... بِنُعْمَانَ بْنِ عُقْبَانَ بْنِ عَمْرو

فَإِنْ تَكْفُرْ فَإِنِّي لَا أُبَالِي ... وَإِنْ تَشْكُرْ فَإِنِّي لَسْتُ أَدْرِي[١]

أسر السُّلَيْك رجلاً من بني كنانة بن تيم يقال له: النعمان بن عقبان ثُمَّ أطلقه، ثُمَّ أنشد البيتين[٢]. يفتخر بشجاعته حين اقتحم جمع القوم، وأسر منهم ذلك الرجل.

رتب رضخه المراد به نيله منهم[٣] بالفاء الدالة على التعقيب بلا مهلة على كونه عند سماع خبر اجتماعهم؛ فدلّ على سرعة إقدامه عليهم، وإصابتهم، والحصول على الأسير من بينهم. وعدي السماع بالباء، وكان الأصل أن يقال: سمعت عن جمعهم، أفاد باستعمال باء الإلصاق أنه حصل على الخبر ممن اقترب منهم وأدركهم وتحقق من اجتماعهم. وقيد الرضخ المراد به النيل بكونه (فيهم)، ففهم أنه توسطهم، ومع ذلك لم يتمكنوا منه، بل كانت الغلبة له عليهم. والاطراد بذكر اسم الأسير وآبائه على ترتيب الولادة (نُعْمَانَ بْنِ عُقْبَانَ بْنِ عَمْرو) زيادة في التحدّي؛ لأنه لا يوقف على مثل هذه التسمية إلا بعد التمكن من الأسير وإجباره على الكلام.

وقد استأنف البيت الثاني بالفاء (فإن تكفر)، واستعمل الفاء بين فعل الشرط وجوابه (فإني لا أبالي – فإني لست أدري)؛ ليسرع في تسجيل عدم

---

(١) السُّلَيْك بن السُّلَكَة أخباره وشعره: ص٥٨.

(٢) يراجع الأغاني: ج٢٠/٢٤٧.

(٣) يراجع لسان العرب: ج٣/١٩ (ر ض خ).

مبالاته بتحصيل كلام المنكرين لشجاعته وكلام المقرّين له بها؛ ولهذا جاء كلامه مؤكّداً باسمية الجملة و(إنَّ)؛ لإظهار معتقد نفسه. واستعمال (إنْ) في الشرط (فإنْ تكفر – وإنْ تشكر) يدخل تحت التنبيه على عدم اهتمامه بكلام الناس عنه، فهي تستعمل في القليل النادر أو المشكوك فيه. ونفى جواب الشرط الأول بـ(لا) التي ينفى بها الحال والاستقبال؛ ليسجل بها أنه لا يهتم لتحصيل كلام الناس لا في الحال ولا في الاستقبال. ونفى جواب الشرط الثاني بـ(ليس) التي أفادت بدلالتها على المضي تحقق عدم علمه بمن يعلمون شجاعته وبأسه وتحمله واجتيازه للصعاب. والطباق بين الكفر والشكر (تَكْفُرْ – تَشْكُرْ) يربط بين الحالين؛ ليكشف ترفع الشاعر عن انتظار الثناء أو كراهته لإنكار شجاعته وبأسه. وقدم في الشرط حال الإنكار على حال الشكر؛ لأنّ التصريح بنفي الشجاعة عنه ممن لا يعتبرونه أشد على النفس من الإمساك عن الإقرار بها ممن ينصفونه. وهو يتظاهر بأنه لا يعتبر مدح المادحين أو ذمّ المنكرين، لكن تصريحه بهذا المعنى يؤكد غير ذلك، فمدح المادحين يؤثر فيه، وهو يترقبه وينتظره، وإساءة المبغضين له تؤذيه، ويحاول دفعها عن نفسه. وفي مختار الأغاني في الأخبار والتهاني: "فَإِنْ يَكْفُرْ فَإِنِّي لَا أُبَالِي"(١)، أعاد الضمير في (يكفر) على نُعْمَانَ ابْنِ عُقْبَانَ بْنِ عَمْرو، الذي أسره ثُمَّ أطلقه، يقول: إنه أنعم على ذلك الأسير، وأنه مدين للسُلَيك بالشكر على إطلاقه، فإنه لو شاء أن يقتله لقتله، ثُمَّ التفت من الغيبة (فَإِنْ يَكْفُرْ) إلى الخطاب (وَإِنْ تَشْكُرْ فَإِنِّي لَسْتُ أَدْرِي) استحضاراً لذلك الأسير؛ ليفيد قدرته عليه، وأنه إن شاء أن يأسره مرةً أخرى فعل. ولا يبعد أن تكون رواية الخطاب (فَإِنْ تَكْفُرْ – وَإِنْ تَشْكُرْ) خطاباً لذلك

(١) مختار الأغاني في الأخبار والتهاني: ج٤/٢٨١

الأسير، التفت فيها الشاعر من الغيبة عند التصريح باسمه إلى خطابه؛ ليفيد قدرته عليه بعد أن أطلق سراحه.

(ب) دفاعه عن النهاب بخطمة

[من الطويل]

فَلَوْ كُنتُ بَعْضَ المُقْرِفِينَ رَدَدتهَا ... بِخَطْمَةَ إِذْ هَابَ الجَبَانُ وَخَيَّمَا[١]

هذا البيت دليل على حدثٍ أوجزه الشاعر، دلّ على إغارته وفراره بالنهاب، وعدم جبنه عندما طارده أصحاب النهاب بما يدل على شجاعته في الوقت الذي جبن فيه غيره عن المواجهة.

امتناع الردّ من دلائل شجاعته؛ لأنه يكشف عن حوارٍ دار بينه وبين أصحاب السرقات مواجهةً، وهو في تلك الحال مخير بين البقاء على موقفه أو ردّ النهاب لأصحابها، ويترتب عليه الصراع والقتال لتكون الغلبة لأحد الفريقين، وهو يدلّ على فرط رفضه بجعل الردّ في حيز الامتناع (فلو كنت بعض المقرفين رددتها). ويفيد مع رفضه دناءة المعابين المتهمين (المقرفين)[٢] وهوانهم عليه. فحصل من الأسلوب أنه لا يردّ النهاب؛ لأنه لا يفعل ذلك إلا متهم معاب، وفهم منه أنه فضّل المواجهة في أرض أصحاب النهاب (بخطمة)، وهي أرض قرب مراد باليمن[٣]، وهي درجة أخرى في الشجاعة، فقرار المواجهة والدفاع عن النهاب شجاعة، وكون ذلك في أرض أصحاب النهاب درجة أخرى في الشجاعة والإقدام، ويضاف إلى ذلك ضعف بعض الصَّعَاليك عن المواجهة وردّ المال لأصحابه، وهم الذين أشار

(١) السُّلَيْك بن السُّلَكَة أخباره وشعره: ص٦٦.

(٢) يراجع الصحاح: ج٤/١٤١٥ (ق ر ف).

(٣) يراجع معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع: ج٣/٥١، ١٣١.

إليهم بالمقرفين، جبنوا عن المواجهة وتركوا السُّلَيْك مع السرقات وفروا، وقد تبرأ منهم. وكنى عن قوة أصحاب النهاب بجبن بعض الصَّعَاليك (إذ هاب الجبان وخيما)، بلغ من قوتهم تعذر حركة بعض الصَّعَاليك من شدة الخوف (وخيما)، و"الإِخامَةُ أَن يصيب الإِنسانَ أَو الدابةَ عَنَتٌ فِي رِجْله، فَلَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمَكّنَ قَدَمَهُ مِنَ الأَرض فيُبْقِي عَلَيْهَا؛ يُقَالُ: إِنه ليُخِيم إِحدى رِجْليه"(١). ويظهر من المشهد أن السُّلَيْك وجد نفسه في مواجهة عدوه مع فرار بعض الصَّعَاليك بدون المال، وعجز بعضهم عن الحركة من شدة الخوف، وحرف الامتناع (لو) يقضي بأن السُّلَيْك لم يرد المال وتغلب على عدوه في تلك الأرض البعيدة عن أرضه، وإلا ما كان منه هذا الإخبار.

والترتيب بين الجبن والإخامة (إذ هاب الجبان وخيما) يكشف فطنة السُّلَيْك ومتابعته النفسية لمن حوله؛ فقد حكى أن تهيب أصحاب المال والفزع منهم الذي حصل لنفس بعض الصَّعَاليك أذهب الشجاعة ومكن الخوف من نفوسهم فظهر لخوف النفس عجز الجسد عن الحركة، والتسليم للعدوّ يقضي على الخائف العاجز بما يشاء.

(١) لسان العرب: ج١٢/١٩٥ (خ ي م).

(٤) رعاية السُّلَيْك لأصحابه

[من الطويل]

إذا أَرْمَلُوا زَادًا، عَقَرْتُ مَطِيَّةً ... تَجُرُّ بِرِجْلَيْهَا السَّرِيحَ المُخَدَّمَا[١]

يتابع السُّلَيْك حاجة أصحابه الذين يستعين بهم، فإذا نفد منهم الزاد جاد لهم بأفضل ما عنده إكراماً لهم، وهذا سرّ انقيادهم وطاعتهم له.

أخبر عن توالي كرمه مع فاقةٍ محققةٍ تتجدد مع صحبه كما أفاد التقييد بظرف الاستقبال (إذا)، "يقال: أَرْمَلَ القومُ: إذا نَفِد زادُهم"[٢]. وإسناد الإرمال لعموم الصحب يحكي تعاونهم، يكون معهم الزاد فيكفي الجميع، يتقاسمونه بالسوية، فإذا حلت الفاقة أصابت الجميع، فينهض السُّلَيْك لإدراك صحبه وقت حاجتهم للزاد، ويبالغ في عطائه لهم. وتنكير الزاد (إذا أَرْمَلُوا زَادًا) يرمي لشدة حاجة القوم، وهو يلتقي بتنكير المطية (عَقَرْت مَطِيَّةً) الذي أفاد تفخيم تلك الناقة التي عقرها لأصحابه، وأنها كثيرة اللحم تكفي حاجتهم وشدة فقرهم التي دل عليها تنكير (زَادًا)، وقد كنى عن قوة المطية بالجملة الوصفية (تَجُرُّ بِرِجْلَيْهَا السَّرِيحَ المُخَدَّما)، والخِدامُ: سُيُورٌ تُشَدُّ فِي الأَرْساغ، والسَّرِيحُ: السيرُ الَّذِي تُشَدُّ بِهِ الخَدَمَةُ فَوْقَ الرُّسْغ[٣]، فاقت قوتها القدرة على استيقافها للعقر، فشد على رجليها سير غليظ، وشد السير بسيرٍ آخر تقويةً له، ومع ذلك هي تجر السير الغليظ الذي شد به رسغها، ولا يكون هذا إلا قبل أن تذبح، مع ما أفاده الجر من طول تلك السيور الغليظة التي شد بعضها فوق بعض. والتعبير عن الناقة بمطية دليل كرم السُّلَيْك، نحر

---

(١) السُّلَيْك بن السُّلَكَة أخباره وشعره: ص٦٦.

(٢) الصحاح: ج٤/ ١٧١٣ (ر م ل).

(٣) يراجع لسان العرب: ج٢/٤٨٠ (س ر ح).

لأصحابه ناقة يرتحل عليها، وقد أسند العقر لنفسه فأضاف اعتناءه بشأن صحبه.

وبيت السُّلَيْك مقدم على قول أَرْبَد بن قَيْس:

وَقَدْ أَشْعَرَتْنِي جَارَتَايَ مَلامَةً ... عَلَى اللَّهْوِ يَوْماً فِي القِدَاحِ وَفِي الخَمْرِ

وَعَقْرِي لِأَصْحَابِي الغَدَاةَ مَطِيَّتِي ... إِذَا أَرْمَلُوا زَاداً بِأَبْيضَ ذِي أَثَر(١)

اتفق أربد مع السُّلَيْك في نجدة الصحب عند تحقق فاقتهم، لكن أربد أضاف المطية لنفسه (مطيتي) فأفاد أنها واحدة، وعليه يكون العقر قد وقع منه مرةً واحدةً، بينما نكر السُّلَيْك المطية فأفاد كثرة مطاياه التي تسعف صحبه كلما تجددت فاقتهم. مع ما في بيت السُّلَيْك من الحديث عن السيور التي شدت على أرساغ الناقة فعلم قوتها ورهبة من يقدم على عقرها من تلك القوة التي حملتها على محاولة الحركة رغم تقييدها، وفقد ذلك في قول أربد الذي عقرها عقراً سهلاً بسلاحٍ أبيض أثر فيها بما يفهم يسرها عليه وعدم مقاومتها له لضعفها. ولم تؤثر في السُّلَيْك ملامة غيره بخلاف أربد الذي شعر بملامة جارتيه، ومثل ذلك الشعور يؤثر في الكرم.

(١) البيتان من الطويل لأربد بن قيس أخي لبيد بن ربيعة لأمه في المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وأنسابهم وبعض شعرهم، لأبي القاسم، الحسن بن بشر الآمدي (ت٣٧٠هـ)، دار الجيل، بيروت – لبنان، (١٤١١هـ – ١٩٩١م): ص٢٩، ٣٠.

ثانياً: حديث السُّلَيْك عن الإغارة

(١) العزم على الإغارة والذعر

(أ) توعد وادٍ باليمن بين جأشٍ ومأرب

[من الوافر]

أَمُعْتَنِقِي رَيْبُ المَنُونِ وَلَمْ أَرُعْ ... عَصَافِيْرَ وَادٍ بَيْنَ جَأْشٍ وَمَأْرِبِ

وَأَذْعَرُ كَلَّاباً يَقُوْدُ كِلَابَهُ ... وَمَرْجَةُ لَمَّا أَلْتَمِسْهَا بِمَقْنَبِ(١)

يبدي السُّلَيْك عزمه على الإغارة على إبل نجائب بوادٍ باليمن بين جأش، ومأرب؛ وبسط الفزع على أماكن الصيد النائية عن العمران، والإغارة على مرجة باليمن(٢) بكتائب خيلٍ لرجالٍ يقودهم.

لم يخبر السُّلَيْك عن عزمه، لكنه استفهم على سبيل الإنكار والاستبعاد لنزول الموت به قبل أن يحقق ما عزم عليه، فالاستفهام ظاهر من الأسلوب لكن معناه الإخبار بالتحدي، وسرّ العدول إلى الاستفهام جذب المتلقي الذي وجه له السؤال لمتابعة الشاعر في تحقيق ما عزم عليه، ولن يتمكن المتلقي من الجواب إلا بعد متابعة حياة الشاعر وحركته لتنفيذ ما سأل عنه. والكناية عن الموت بريب المنون تحيط بدقائق النفس من الموت؛ فالريب شكّ وخوف، شكّ النفس في إقبال الموت وخوفها من قدومه، والمنون من المنّ بمعنى القطع، وسمي الموت منية؛ لأنه ينقص العدد ويقطع المدَد(٣)، فالنفس بعد شكّها في إقبال الموت بسبب أنسها بنعيم الحياة ومباشرة أسباب اللذة مع خوفها من إقباله بسبب إحاطته ببعض من

---

(١) السُّلَيْك بن السُّلَكَة أخباره وشعره: ص٤٨ ، ٤٩.

(٢) يراجع معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع: ج٤/٥٣، ٥٤، ج٤/٧٧.

(٣) يراجع مقاييس اللغة: ج٢/٤٦٣ (ر ي ب)، ج٥/٢٦٧ (م ن).

تعايشهم، يفجأها الموت ويقطعها عن التصرف. وإظهار عزم الشاعر مع هذا الوصف للموت يضاعف التحدّي، ويقطع بأنه سيسرع إلى تحقيق عزمه من الإغارة والهيمنة قبل أن تشغله النفس بفراق الحياة، وقبل أن يكون ذلك الفراق. والاعتناق يهدي إلى فطنة الشاعر بالجهة التي يأتي منها الموت، وهي جهة الأمام، يسير الإنسان نحو الموت ويقترب منه كلما مرّ يوم من عمره، وفي لسان العرب "أَمُعْتَقِلي"(١)، من الاعتقال، وهو الحبس، وهذه الرواية تركز على عزل الموت لمن يصيبهم، يتمكن منهم، ولن يكون لهم فرار. والتصريح بأسماء البلدان التي عزم على الإغارة عليها لون آخر من التحدي (وَادٍ بَيْنَ جَأْش – مَأْرَب – مَرْجَة)؛ لأنه أدعى إلى أخذ الحذر منه إذا ذاع بين الناس شعره المصرّح فيه بما عزم عليه.

وعلّق بالاستفهام ثلاثة أحوالٍ من ضمير المفعول: إراعته لإبل بوادٍ بين جَأْشٍ وَمَأْرِبٍ، وإذعار كلابٍ يقود كلابه، والإغارة على مرجة بكتيبة خيلٍ. كنى بالحال الأول عن الغلبة على أصحاب الأبل؛ لأن إفزاع الإبل لتسير أمامه لا يكون إلا بعد التغلب على أصحابها (وَلَمْ أَرُعْ عَصَافِيرَ وَادٍ بَيْنَ جَأْشٍ وَمَأْرِبِ)، والتعبير بالروع دليل على ذكاء الإبل وخفة روحها، فهي تفزع من كل شيء. والعصافير إبل فتايا، ويقال: إن الأصل في هذا الاستعمال: أن النُّعْمَان بْن الْمُنْذِر كان له إبل فتايا نجائب يُقَالُ لَهَا: عَصافير النُّعْمَانِ، وعليه يكون مراد السُّلَيْك من الإغارة إبلاً فتايا نجائب كإبل الملوك، وقد يكون مرجع الاستعمال إلى قولهم لِلْجَمَلِ ذِي السَّنَامَيْنِ: عُصْفورِيٌّ، وهي إبل خاصّة أيضاً(٢). وتحديد السُّلَيْك لموضعها بكونها بوادٍ

(١) لسان العرب ج٦/٢٧٠ (ج أ ش).

(٢) يراجع لسان العرب ج٤/٥٨٢ (ع ص ف ر).

بين جأش ومأرب دليل على مراقبته ومتابعته لها. وكثرة أعدادها تبديها الإضافة (عَصَافِيرَ وَادٍ).

ثُمَّ كنى عن بسط نفوذه على الخلاء وأماكن الصيد بإفزاعه لكلَّابٍ يقود كلابه (وَأَذْعرُ كَلَّاباً يَقُودُ كِلَابَهُ)، والكلَّاب: صاحب الكلاب، وسائس الكلاب[١]، يخرج بها للصيد في الأماكن غير المأهولة بالآدميين، يقول: إنه يسيطر على الأماكن الخالية، ويحذره من يخرج للصيد بكلابٍ معلمة، وهذه قيمة الجملة الوصفية (يَقُودُ كِلَابَهُ)؛ لأن الكلاب تستجيب لقائدها إن وجهها للصيد أو غيره، ولو لم تذكر الجملة الوصفية لبقي المعنى محتملاً؛ لأن الكلَّاب يطلق على معلم الكلب والطير كالصقر والبازي والشاهين، وهو هنا يعني بالكلَّاب معلم الكلاب خاصّة؛ لأنها تستعمل في الصيد وغيره بخلاف الطيور فإنها تستعمل في الصيد وحده. ووراء الكناية الإشارة إلى أن غير الكلَّاب يكون أشدّ حذراً. وتنكير المفعول (وَأَذْعرُ كَلَّاباً) يفيد أنه يذعر كل كلابٍ.

ثُمَّ كنى عن قيادته لكتائب خيل ينقاد فرسانها لأمره حين يوجهها (وَمَرْجَةُ لَمَّا أَلْتَمِسْهَا بِمَقْنَبِ). والفرق بين حديثه عن مرجة، وحديثه عن الإبل التي بوادٍ بين جأش ومأرب، أن الإبل التي بالوادي ترعى وحولها من الرعاة عدد قليل لقيادتها للمرعى، والتغلب عليهم يكفي مع عددٍ قليلٍ أو يكفيه شجاعة السُّلَيْك، فيستولي عليها ويقودها وحده، بخلاف مرجة فهي بلدة مأهولة، والتغلّب عليها يحتاج لكتائب من الفرسان معهم من السلاح ما يفوق طاقة أهل مرجة حتى يكون لهم الغلبة، والسُّلَيْك يخبر أنه يملك تلك الكتائب، وقد أشار إلى الاستيلاء عليها بسرعةٍ ويسرٍ بفعل اللمس (لَمَّا

(١) يراجع الصحاح: ج١/٢١٣ (ك ل ب).

أَلْتَمِسْهَا)، والكلام يناسبه فعل الإصابة بأن يقول: (أصبها)، لكنه أراد خفة الأمر وسرعته، حيث ينال البلدة بسرعةٍ ويسرٍ تشبه السرعة التي يكون بها وقوع اللمس من اللامس. وفي تاج العروس "لما أَقْتَبِسْها"[1]، شبّه استيلاءه على مرجة في سرعة حصوله بالسرعة التي يكون بها اقتباس النار. وانشغال فكره بالزمن ملحوظ في استعمال (لما) الحينية.

(ب) توعد خثعم بالقتال

[من الوافر]

فَهَذِي مُدَّةٌ خَمْسٌ وَلَاءٌ ... وَسَادِسَةٌ عَلَى جَنْبَي عِشَارِ[2]

يتكلّم الشاعر عن المدة التي تعاونت معه خثعم، وسمحت له بالمرور بأرضها للإغارة على بلاد اليمن، وبلغت هذه المدة خمس سنوات، ثُمَّ كان الخلاف بينه وبين خثعم فتحول في السنة السادسة عنها لا يمرّ بأرضها، بل يمر من حولها، وقد ذكر أبو الفرج الأصفهاني أن السُّلَيْك كان يدفع إتاوة لعَبْدِ المَلِكِ بنِ مُوَيْلِك الخَثْعَمِيّ على أن يجيره ليتجاوز بلاد خثعم إلى من وراءهم من اليمن فيغير عليهم[3].

أشار إلى أعوم تعاون خثعم معه باسم الإشارة الموضوع للقريب (فَهَذِي مُدَّةٌ خَمْسٌ وَلَاءٌ)، فعلم من الإشارة أنها انقضت، وعلم من إفادة القرب أنها قريبة، بمعنى أنه أنشد البيت في السنة السادسة التي لم تنقض، وهذا سرّ عدم الإشارة إلى تلك السنة عند حديثه عنها بعد ذلك (وَسَادِسَةٌ

(١) تاج العروس من جواهر القاموس، للسيد محمّد مرتضى الحسيني الزَّبيدي، مطبعة حكومة الكويت: ج٩٣/١٧ (ج أ ش)

(٢) السُّلَيْك بن السُّلَكَة أخباره وشعره: ص٥٧.

(٣) يراجع الأغاني: ج٢٤٩/٢٠.

عَلَى جَنْبَي عِشَارِ). وأجمل الزمن في التعبير بـ(مُدَّةٌ)، ثُمَّ فصله (خَمْسٌ) عنايةً به وحرصه على إظهاره؛ ويبدو أن تلك الخمس كانت تمثل نعمةً له يسترجعها من خلال كلامه في هذا البيت. وطابق في شطري البيت بين الولاء، وما ينبئ عن العداء (على جنبي عشار) حيث تحوّل من المرور بأرض خثعم إلى المرور بطرقٍ قريبةٍ منها. وأشار إلى أحد أماكن خثعم (عشار)[١]. وسجل جرأته وشجاعته على المرور قرب خثعم مع عداوتهم له باستعمال حرف الاستعلاء (على جنبي عشار)، فدلّ على تمكنه وعدم خوفه منهم، وكان الأصل أن يستعمل الباء فيقول: وَسَادِسَةٌ بِجَنْبَي عِشَارِ. وعدم تعدد الأرض التي يمرّ عليها دليل جرأته، فهو في السنة السادسة يمرّ على جنبي (عشار)، ولا يمر على غيرها من أرض خثعم، ولو خاف منهم لعدد الأرض التي يمرّ عليها بما تقتضيه عادة التخفي والتستر خوف الملاحقة. والفاء في أوّل البيت ترتب ما جاء بعدها على حديث النفس وانشغالها في التفكر في شأنه مع خثعم، والبيت يبشر برغبته في الهجوم على خثعم والنيل منها، وقد صرّح به في بيتين:

[من الوافر]

بِخَثْعَمَ مَا بَقِيتُ وَإِنْ أَبَوْهُ ... أُوَارٌ بَيْنَ بِيشَةَ أو جُفَارِ

أُوَارٌ تُجْمَعُ الرِّجْلان مِنْهُ ... إِذَا ازْدَحَمَتْ ظَنَابِيبُ الحِضَارِ[٢]

يتوعد السُّلَيْك خثعم بإغارةٍ لا قدرة لهم عليها، وحدّد مكانها بأنها بين بِيشَةَ أو جُفَارِ باليمن[٣]؛ لإظهار فرط ثقته بقوته وغلبته عليهم. والعطف

(١) يراجع معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع: ج٣/٢٠٦.

(٢) السُّلَيْك بن السُّلَكَة أخباره وشعره: ص٥٦ ، ٥٧.

(٣) يراجع معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع: ج١/٢٦٦، ج٢/١٠، ٢٨.

بحرف الترديد والشك (أو) دليل الملاحقة، أراد أنه قد يتغلب عليهم ببيشة، أو يكون منهم الفرار أمامه طلباً للخلاص من بأسه وبطشه فيدركهم بطشه وفتكه وهم في جفار. وقد توعد خثعم بأور، والأوار توهّج النار، ثُمَّ يستعار للشدة[1]، ويبدو أن هدفه من ذلك ليس الحصول على المال، لكنه الانتصار على خثعم لخلافه معها.

عجل بمن توعدهم فبدأ الحديث بهم (بخثعم)، وفي معجم ما استعجم "لخثعم"[2]، وأخّر شدته عليهم (أوار) لفرط ثقته بذلك، غلبت عليه الرغبة في الانتقام، فلجأ إلى التوكيد بالتقديم، قدم متعلق الخبر على المبتدأ (بخثعم ... أوار)، ولو جاء الكلام على الأصل لقيل: أوار بخثعم. كما قدم ما يدل على تكرر الإغارة، (ما بقيت)؛ لأن معناها: مدة بقائي في الدنيا. ومدة الحياة يتلوها الموت، فهي دليل عليه، والتلميح بذلك ينبئ عن إسراعه في تحقيق ما توعد به قبل أن ينزل به الموت، مع تكرر الإغارة ما دام حيًّا. ووراء هذا الإخبار بهوان خثعم، فلا قدرة لهم على قتاله وردّ عدوانه الذي سيتكرر عليهم، فهو في كل مرّةٍ سيصيب منهم.

والاعترض بين متعلق الخبر المحذوف المقدم وبين المبتدأ (وإن أبوه)، تأكيد على ضعفهم وقهرهم، لا تنفع محاولاتهم في ردّ عدوانه، وقد شكك في مجرد تحرك الإرادة في نفوسهم لردّ عدوانه بحرف الشك (وإن أبوه).

وتنكير اللفظ الدال على الشدة (أوار) فيه مع التفظيع والتهويل إبهام يحرك عقل المتلقي لطلبه والسؤال عنه لمحاولة تصوره، ولو أمسك الشاعر

---

(١) يراجع لسان العرب: ج٤/٣٥ (أ و ر).

(٢) يراجع معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع: ج١/٢٦٦، ج٢/١٠، ٢٨.

عن إيضاحه والكشف عنه لم يخرج عن البلاغة؛ لأن التعميم في مقام الوعيد يفسح لكلّ نفسٍ أدركت الخطاب أن تتخيل الأوار الذي حدث عنه بما يناسبها، وهذا من البلاغة، لكن الشاعر يعود للمعنى المبهم لإيضاحه بما يضيف للوعيد جديداً لم يكن يفهم عند سكوته عن الإيضاح:

أُوَارٌ تُجْمَعُ الرِّجْلان مِنْهُ ... إِذَا ازْدَحَمَتْ ظَنَابِيبُ الحِضَارِ

كرّر اللفظ (أوار) فأكّد المعنى السابق، مع صحّة الإيجاز؛ لأن أصل الكلام: هو أوار، وحذف المسند إليه لتعيّنه، وفصل بين هذه الجملة الإسمية والكلام السابق عليها لكمال الاتصال؛ حيث وقعت الجملة الثانية توكيداً لفظياً للجملة الأولى، ومقتضي التوكيد دفع توهم التجوز والغلط. وتكرير اللفظ منكراً كما جاء قبل ذلك (أُوَارٌ) تأكيد لهوله وفظاعته وتناهيه في الشدة، وهو يبشّر بوصفٍ يقربه من الفهم، وقد صرّح به في الجملة الفعليّة (تُجْمَعُ الرِّجْلان مِنْهُ إِذَا ازْدَحَمَتْ ظَنَابِيبُ الحِضَارِ)، كنى بجمع الرجلين عن غاية العجز عن الفرار وتخليص النّفس من المخاطر (أُوَارٌ تُجْمَعُ الرِّجْلان مِنْهُ)، وهذا يكون مع تناهي الشّدة، وتلاحق المخاطر التي لا يستطيع المرء دفعها أو الفرار منها، أراد أن الشدة تفوق كلّ درجةٍ تتصور، فلا يقوى المرء معها على الفرار، بل يجمع رجليه، فلا تكون منه حركة أو فرار، يترقب ما يدور حوله من أهوال قد تصيبه، وقد تخطئه. وبناء الفعل لما لم يسم فاعله (تُجْمَعُ الرِّجْلان) يركز على المفعول (الرجلان)، ويجعل له قوةً ذاتيةً تولدت من تلقاء نفسها، فصارت الرجل تتحرك من تلقاء نفسها وتلتصق بأختها، ولا يكون هذا إلا مع انعدام الإرادة. وقيد الحدث (تُجْمَعُ الرِّجْلان) بزمن الشدة ليقرّر في النّفس ما منع الإنسان من الفرار (إِذَا ازْدَحَمَتْ ظَنَابِيبُ الحِضَارِ)،

والظنابيب: جمع ظُنْبوب، ومعناه متعدد، فالظُنْبوب مقدم مسمار الرمح(١)، وعليه يكون الحضار: جمع حاضر، والمعنى: تكاثرت الرماح وتلاحقت، فمنعت المرء من الفرار خوفاً على نفسه من الإصابة المحتومة. والظنبوب – أيضاً – : مقدّم عظم الساق(٢)، وعليه يكون الحِضارُ: الْبَيْضَاءُ مِنَ الإبل، أو الهِجانُ، والمعنى: أن الإبل تكاثرت وتلاحقت وازدحم بها المكان حتّى تلامست أعظُم سوقِها، فتوقف الإنسان عن الحركة خوفاً على نفسه. والأسلوب على كلا المعنيين كناية عن غاية الشدة، وهنا نجد في البيت كنايتين: الأولى تبين عن غاية العجز (أُوَارٌ تُجْمَعُ الرِّجْلان مِنْهُ)، والثانية تبين عن غاية الشدّة (إِذَا ازْدَحَمَتْ ظَنَابِيبُ الحِضَارِ)، وهما يتكاملان، وقد ربط الشاعر بينهما حين جعل الكناية الثانية ظرفاً للحدث الذي أبانت عنه الكناية الأولى، لكنّه حريص على جذب المتلقّي للمتابعة وترقب ما يلقى عليه، فقدّم الكناية عن غاية العجز (أُوَارٌ تُجْمَعُ الرِّجْلان مِنْهُ)؛ ليحرّك في النّفس طلب ما يبين عن سبب ذلك العجز، فإذا أسعف به عند تحرك الشّوق في نفسه (إِذَا ازْدَحَمَتْ ظَنَابِيبُ الحِضَارِ) سعدت به نفسه مع تمام الاقتناع بمناسبة المقدمة للبرهان.

ومما جاء منفرداً في ديوان السُّلَيْك، وهو يناسب البيتين السابقين، ويعد تقويةً لهما تفاخر السُّلَيْك بكثرة نهبه وقتله في قوله:

[من الوافر]

دِمَاءُ ثَلَاثَةٍ أَرْدَتْ قَنَاتِي ... وَخَاذِفُ طَعْنَة بِقَفَا يَسَار(٣)

---

(١) يراجع لسان العرب: ج١/٥٧٢ (ظ ن ب)

(٢) يراجع الصحاح: ج٢/٦٣٣ (ح ض ر)، لسان العرب: ج٤/٢٠١ (ح ض ر).

(٣) السُّلَيْك بن السُّلَكَة أخباره وشعره: ص٥٧.

يشير السُّلَيْك إلى مواضع نهبه، فيذكر أنه أكثر السّلب والقتل في كلّ الجهات من حوله، وحدّد جهةً سعد بإصابتها، وهي أهل اليمن في الجنوب.

قدم ما يفيد الطعن (دِماء ثلاثةٍ)؛ لينبه على أن الحديث عن الطعن هو غرضه وموضع اهتمامه الذي انعقد له الكلام، ولو جاء الكلام على الأصل لقيل: أَرْدَتْ قَناتي دِماء ثلاثةٍ. والقناة: الرمح(١)، كشف به طبيعة نيله للسرقات، يكون فيه التخفي ومباغتة أهل المال والحيلة في قتلهم عن بعد. والإرداء يناسب الكثرة التي أفادها بكون القتل والنهب كان في ثلاث جهاتٍ من حوله، وفي كلّ جهةٍ من القبائل ما لا يحاط به لكثرتها، وتفرقها مع اتساع الصحراء. ثُمَّ حدّد جهةً رابعةً كثر فيها قتلاه، وهي جهة الجنوب باليمن التي دل عليها باسم موضعٍ فيها (يسار): وهو جبلٌ بِالْيمن(٢). ولم يُذَكِّر العدد مع الجهة، فيقول؛ دماء ثلاثٍ؛ ليناسب الجهة أو الناحية، بل أنثه لبيان هوان تلك الجهات مع كثرتها عليه، على أن يكون التقدير الذي أراده: ثلاثة مواضع، أو ثلاثة بلدان، فهو يرى الشرق بأكمله موضعاً واحداً، ويرى الغرب بأكمله موضعاً واحداً، ويرى الشمال بأكمله موضعاً واحداً، ويرى الجنوب بتمامه موضعاً واحداً. ولولا تحديد هذا الموضع لخفي المراد بثلاثة التي أضافها للدماء في أوّل البيت (دِماء ثلاثةٍ)، وبقيت الدماء الثلاثة التي أصابتها قناته محتملة للأشخاص والأماكن، ولم تعلم على وجه اليقين. وعيّن جهة الجنوب وخصّها بحديثٍ خاصٍّ، فعلم ضغنه لأهل اليمن وسعادته بنيله منهم، وهذا سرّ الحديث عن الطعنة بكونها سريعة (وخاذِف

(١) يراجع لسان العرب: ٢٠٣/١٥ (ق ن ا).

(٢) يراجع تاج العروس من جواهر القاموس: ٤٦٨/١٤ (ي س ر).

طَعْنَة)، يقال: أتان خذوف: ترمي مِن سرعتها الحصى[1]. وأضاف الصفة إلى الموصوف؛ ليتأتى له تقديم الصفة؛ لينبه على اهتمامه بسرعة الطعنة المنبئ عن غيظ صدره من أهل اليمن، ولو جاء الكلام على الأصل لقيل: طَعْنَة خاذف، بتقديم الموصوف على صفته. ويسار موضع، والموضع لا قفا له؛ لأن القفا المراد به مؤخرة الرأس والعنق يكون من الإنسان، والمراد حتماً أهل يسار، يقول: إنه أصابهم في مؤخرة رؤوسهم، على طريقة المجاز العقلي بعلاقة المكانيّة، كأن الطعن السريع الذي كثر في أهل يسار فاق الحدّ وتجاوز أهل يسار إلى المكان نفسه، والضرب من هذه الجهة دليل على غباء المضروب وبلاهته، غوفل وأصيب من ورائه فشفعت بلادته بالضعف والعجز بعد إصابته ونيل عدوه منه.

ويجوز أن يحمل القفا على معنى التلو والتتبع[2]، فيكون المراد ما يتلو يسار ويحيطها من البلاد، وهذا الوجه يفيد كثرة قتلاه، وقد أشار في أشعاره إلى العديد من مواضع اليمن التي نالها بالنهب والقتل، مثل: بِيشَةَ، وتحتم، وجابان، وجُفَارِ، وخثعم، وخطمة، وعشار، وقضيب، ومراد. وسرعة الطعن المدلول عليها بـ(خاذف طعنة) على هذا الوجه تكشف أن أهل تلك البلاد مع كثرتهم يبغضهم، ويسعد بالنيل منهم. وهذا الوجه أنسب للثلاث جهات التي أشار إليها في أوّل البيت، ويناسب البيتين السابقين في التحليل على هذين البيت.

ومن الأبيات المنفردة في الديوان، وهو يناسب البيت السابق في المعنى قوله:

---

(١) يراجع الصحاح: ١٣٤٨/٤ (خ ذ ف).

(٢) يراجع مقاييس اللغة: ١١٢/٥ (ق ف ي).

[من الوافر]

كَأَنَّ مَفَالِقَ الْهَامَاتِ مِنْهُمْ ... صَرَايَاتٌ تَهَادَتْهَا الْجَوَارِي(١)

يقول: إنه أصاب عدوّه، وأكثر فيه الضرب، حتى صارت هاماتهم التي أعمل فيها سيفه كقطع لحمٍ يتهاداها الجواري، يقال: "صَرَى الشيءَ صَرْياً: قَطَعَه ودَفَعه"(٢)، ووجه الشبه القلّة وصغر الحجم في كلٍّ من المشبه والمشبه به، وهو مستفاد من تنكير (صرايات) الدّال على التحقير والقلّة، مع تقييد صرايات بالجملة الوصفية (تهادَتْها الْجَوَارِي)؛ لأن الجارية ليست في سعةٍ تسمح لها بإهداء الكثير، بل تهدي ما يناسب حالها، وفي النبات والشجر: "تهادَتْها جَوَارِي"(٣)، بالتنكير المنبئ عن التحقير المرتب عليه قلة ما يتهادونه. وعدل إلى الإضافة (مفالِق الْهَامَاتِ) عن الوصف (الهامات المفلقة) مبالغة في سرعة تحويل الرؤوس إلى قطعٍ، وأن هذا التحويل هو غاية الشاعر قبل أن يلقى عدوّه. والمعنى الذي يسوقه الشاعر محمول على المبالغة المقبولة لإمكانه عقلاً وعادة، وهذا يناسبه التأكيد بـ(كأن)؛ ليعالج تردد المتلقي عند تحصيل المعنى. وأبهم الشاعر العدوّ الذي حدث عنه (كأَنَّ مفالِق الْهَامَاتِ مِنهُمْ)، وهذا أبلغ في الدلالة على شجاعته وقوته، ففي الإبهام تعميم يرمي إلى أن من أعمل فيهم سيفه بلغوا من الكثرة درجة لا يستطيع أن ينصّ على فريقٍ منهم، وفي الإبهام إشارة إلى شهرة ذلك، وحسب السامع الإشارة إلى أمرٍ يعلمه.

---

(١) السُّلَيْك بن السُّلَكَة أخباره وشعره: ص٥٨.

(٢) لسان العرب: ج١٤/٤٥٧ (ص ي).

(٣) النبات والشجر، لأبي سعيد، عبد الملك بن قُرَيب، المشهور بالأصمعي، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، الطبعة الثانية (١٩٠٨م): ص٤٩.

(٢) إغارة السُّلَيْك على إبلٍ بمراد

[من البسيط]

يَا صَاحِبَيّ أَلَا لَا حَيَّ بِالوَادِي ... إِلَّا عَبِيدٌ وَآمٌ بَيْنَ أَذْوَادِ

أَتَنْظُرَانِ قَلِيلاً رَيثَ غَفْلَتِهِم ... أَمْ تَعْدُوانِ فَإِنّ الرّيحَ لِلْعَادِي(١)

انطلق السُّلَيْك مع رفيقين له للإغارة والسّلب، فلما أتوا جوف مراد باليمن، عاينوا فيه إبلاً، فسار السُّلَيْك إلى الرعاة ليقف على حقيقة الإبل وأصحابها، وانتظر صاحباه قريباً منه حتى يستدعيهما للإغارة إن أيقن بعد الحي أو ينصرف معهما إن وجد من يحمي الإبل ويدافع عنها، فلما علم بعد الحيّ، غنى الرعاة بهذين البيتين(٢).

والمقام يتطلب حيلة الشاعر للإبانة بكلامٍ فيه خفاء وتعمية على الرعاة، وفيه إخبار لصاحبيه عن بعد الإبل عن الحيّ، وقد وفق الشاعر في ذلك، فالنداء على حقيقته فيه استدعاء لصاحبيه، وفيه التعمية على الغلمان؛ لأن استيقاف الأصحاب استعمال مشهور للشعراء، وغنائه لهم يصرف انتباههم عن إرادة حقيقة النداء إلى التفنن في صوغ المعاني.

وأتبع النداء التنبيه بـ(ألا) التي تفيد تنبيه المخاطب وتهيئته لما يأتي بعدها من خطابٍ تأكيداً له، وهي تهديه إلى عين الفائدة التي يريدها المتكلم، وهو يؤكد بها بعد أهل الحي عن الوادي (ألا لا حيّ بالوادي)، نافياً بـ(لا) التي تستعمل في نفي الحال والاستقبال، فعلم أنه تقصى أحوال الإبل وأصحابها، واطمأن إلى أنّ أهل الحيّ الذين يدافعون عن الإبل بعيدون، لا يدركونه إن أغار عليها. وإطلاق الحيّ، وهو مكان إقامة أهله على أهل

---

(١) السُّلَيْك بن السُّلَكَة أخباره وشعره: ص٥١.

(٢) يراجع الشعر والشعراء: ج٢٩٦/١ ، ٢٩٧.

الحيّ مجاز مرسل علاقته المحليّة، أطلق المحل على أهله الذي يقيمون فيه لإظهار المبالغة في غياب عموم أهل ذلك الحيّ.

واستثنى من أهل الحيّ عبيداً وآمًا، أبان عن قلة عددهم حين حدّد مكانهم بأنهم بين الإبل (إِلا عَبِيدٌ وَآمٌ بَيْنَ أَذْوَادِ)، ولو كانوا كثيرين لقال: عند أزواد، أو حول أذواد. والآم: جمع أمة يكون من ثلاث لعشر، فإن زدن عن ذلك جمع على إماء(١). والأذواد: القطيع من الإبل، تعددت الأقوال في تحديد عدد أفراده، قِيلَ: مَا بَيْنَ الثَّلَاثِ إِلى الْعَشْر، وَقِيلَ: إِلى خَمْسَ عَشْرَةَ، وَقِيلَ: إِلى عِشْرِينَ، وَقِيلَ: إِلى الثَّلَاثِينَ، وَقِيلَ: مَا بَيْنَ الثِّنْتَيْنِ وَالتِّسْعِ، وَلَا يَكُونُ إِلّا مِنَ الإِناث دُونَ الذُّكُورِ(٢). واستعمال الأذواد في الإبل إثارة للصاحبين؛ لأن الإغارة ستكون على إبل كثيرة العدد، نكرها الشاعر ليفيد مع الكثرة المستفادة من التعبير عنها بأذواد المبالغة في تلك الكثرة. والأنسب للمعنى أن يكون متعلق الجار والمجرور اسماً، فيكون التقدير: لا أهل حيٍ مستقرين بالوادي؛ لأنه يكشف به عن حال معاينته للإبل قبل الإغارة عليها، ولا يريد أن يقرر استقراراً قد كان من أهل الإبل، فيأتي بالفعل الماضي (استقر)، وبهذا يظهر أن التقدير بمستقر أو استقر الذي أجازه النحاة للجار والمجرور حين يتعلق بخبرٍ محذوف ليس على إطلاقه، بل هو مقيد بما يطلبه المقام، يتحتم تقدير الاسم (مستقر) في موطن لا يغني عنه الفعل، ويتحتم تقدير الفعل (استقر) في موطنٍ آخر لا يغني عنه الاسم.

---

(١) يراجع أمثال العرب، للمفضل بن محمد الضبي، قدم له وعلق عليه: الدكتور/ إحسان عباس، دار الرائد العربي الطبعة الأولى (١٤٠١هـ - ١٩٨١م): ص٦٣.

(٢) يراجع لسان العرب: ج١٦٨/٣ (ذ و د).

وفي الأغاني "سِوَى عَبِيدٍ وَآمٍ بَيْنَ أَذْوَاد"(١)، والاستثناء بـ(سوى) له محله من النظر، وذلك أن أداة الاستثناء الأم هي (إلا)، ثُمَّ يؤتى بما يؤدي معناها مع ما تتطلبه المقامات المختلفة، وقد ناسبت سوى في البيت رق العبيد والآم المشار إليهم، فالباعث على القتال العزة، وهي لا تناسب حال الأرقاء الذين أتى عليهم الرق، فأذهب كرامتهم، وقضى على رغبتهم في الحياة. وعطف آم على عبيد (إلا عَبِيدٌ وَآمٌ) ولم يغلب الأكثر على الأقل، أو يغلب الذكور على الإناث، ومراده من العطف التسوية بينهم في الضعف عن النصرة والدفاع عن الإبل. والقصر الحاصل من النفي والاستثناء قصر إضافي، وهو قصر تعيين، تردد الصاحبان بين قرب الحيّ من الإبل وغيابهم، فأكد الشاعر بعد الحيّ، ونفى قربهم. وفي سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون: "إلا عَبِيداً قِيَاماً بَيْنَ أَذْوَادِ"(٢)، ذكر العبيد وأبان عن حالهم من القيام لحراسة الإبل، ولم يذكر الآم، وهذه الرواية تظهر يقظة العبيد، وانتباههم لرعاية الإبل واستعدادهم للصد والزود عنها، وهي لا تناسب دعوة الصاحبين للتعجيل بالإغارة، بخلاف الرواية المصرّح فيها بالعبيد والآم فهي أنسب لندائه لصاحبيه وتوجيهه لهما بالإغارة؛ لأنها أبانت عن ضعف العبيد، والاستعانة بالإماء لرعاية القطيع.

ونداء الصاحبين دليل على أن الشاعر يطلب منهما الإغارة؛ لأنه حدّد لهما قبل ذلك أنه إن وجد من يدافع عن الإبل سيرجع إليهما وإن لم يجد من يدافع دعاهما للإغارة، وهنا يظهر الإيجاز بعد النداء، أو بعد حرف الاستفتاح، كأنه قال: يا صاحبي أغيرا، ويكون ما بعده (لا حيّ بالوادي)

(١) الأغاني: ج٢٠/٢٤١.

(٢) سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون: ص١٢٧.

تعليلاً للإغارة، فبين جملة النداء وما بعدها شبه كمال اتصال، كأنه بعد أن ناداهما للإغارة وقع في أنفسهما السؤال، أنغير لأنه لا يوجد من يحمي الإبل ويدافع عنها؟ فكان الجواب: (لا حيّ بالوادي). ويصح أن يجعل موطن الإيجاز بعد أداة الاستفتاح، على أن يكون النداء لطلب الإقبال، وما بعده بيان للإغارة، فيكون التقدير: يا صاحبيّ ألا أغيرا لا حيّ بالوادي، كأنه بعد أن طلب منهما الإقبال بالنداء، ذكر سبب ذلك النداء، وعليه يكون شبه كمال الاتصال بين الإغارة المقدرة بعد (ألا) وبين جملة النفي بعدها (لا حيّ بالوادي)، أثار الأمر المقدر (أغيرا) السؤال عن السبب: أتدعونا للإغارة لبعد أهل الحي عن الإبل؟ فأجيب: لا حيّ بالوادي. ويصح على كلا التقديرين أن يكون فصل جملة النداء عن جملة التنبيه بعدها لكمال الانقطاع لاختلاف الجملتين خبراً وإنشاءً لفظاً ومعنى.

وقد استقصى حال الصاحبين عند الإغارة على الإبل في الاستفهام (أتنظران قريباً رَيثَ غفلتِهم أم تعدوان؟)؛ لأن حالهما الاستيلاء على الإبل مع التخفي المفهومة من انتظار غفلة الرعاة عن الإبل أو المجاهرة المفهومة من العدو. وقد فصل السؤال عما قبله لكمال الانقطاع؛ لاختلاف الجملتين خبراً وإنشاءً لفظاً ومعنى. وعبر عن الانتظار بالنظر؛ لأنه يريد انتظاراً فيه توجيه العين للمراقبة، والانتظار وحده لا يدل على هذا المعنى. والاستبطاء والتأني الحاصل من التريث (رَيثَ غَفْلَتِهِم) يكون في الزمن الذي ينتظرون فيه غفلة الرعاة، وفي الإضافة (رَيثَ غَفْلَتِهِم) إظهار لقصر الزمن الذي يكون فيه الانتظار، فقد أضافه للغفلة التي تليه إيماءً إلى قلة زمن الانتظار وحصول الغفلة سريعاً. وأخر بعد (أم) المعادلة الحال التي يفضلها (أَمْ تَعْدُوانِ)؛ ليبني عليها اختياره (فَإِنّ الرِّيحَ لِلْعَادِي). كنى عن نجح الأمر بكون الريح للعادي الذي يسرع إلى غايته (فَإِنّ الرِّيحَ لِلْعَادِي)، وهي كناية

بعيدة؛ فالريح بصيغة الإفراد تستعمل – في الغالب – في الضرّ والمكروه؛ لأنها تأتي من جهةٍ واحدة، ويبنى على ذلك القوّة التي تكون عليها، وضررها لا يخفى، وهو يخبر صاحبيه بأن معاجلة الغلمان بالعدو له أثر شبيه بأثر الريح التي تأتي من جهة واحدة في التغلب على من يواجهها، ويبنى على هذه القوة والغلبة نجح الأمر والفرار بالإبل. والفاء في جملة التعليل (فَإِنّ الرِّيحَ لِلْعَادِي) للاستئناف، ولابد من تقدير أسلوب أمرٍ بعد الفاء، ولو جاء الكلام على الأصل لقيل: فاعدوا، إن الريح للعادي، والفصل بين التعليل وأسلوب الأمر المقدر لكمال الانقطاع لاختلاف الجملتين في الخبريّة والإنشائيّة، ولا يصحّ أن تكون الفاء لعطف جملة التعليل (فَإِنّ الرِّيحَ لِلْعَادِي) على العدو في جملة الاستفهام (أَمْ تَعْدُوانِ)؛ لأن العطف على جزءٍ من جملة الاستفهام لا يستقيم. ولا يخفى حسن التعليل فهو تذييل مؤكد للمعنى المتقدم عليه، مع استقلاله، وصحة انتشاره مثلاً يعمّ كلّ أمر يحذر صاحبه العواقب، فيقف متردداً بين الانتظار والإقدام. وفي الأغاني "أم تَغْدُوانِ فَإِنّ الرِّيحَ لِلغَادِي"[1]، وهذه الرواية تلتقي مع الرواية الأولى للبيت، فالغدو سير أول النهار[2]، ومعلوم أن طلب الأمر في أول النهار من أسباب النجاح، قال بشار:

بَكِّرَا صَاحِبَيَّ قَبْلَ الهَجِيْرِ ... إِنّ ذَاكَ النَّجَاحَ فِي التَّبْكِيْرِ[3]

(١) الأغاني: ج٢٠/٢٤٢.

(٢) يراجع لسان العرب: ج١٥/١١٨ (غ د ا).

(٣) البيت من الخفيف التام لبشار بن برد في ديوانه، تحقيق: السيد بدر الدين العلوي، دار الثقافة، بيروت – لبنان (١٩٨١م): ص١٢١.

ونجح الأمر هو الغاية التي يرمي إليها الشاعر، واستدعى من أجلها صاحبيه، وفي سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون رواية تصرح بالغدو والربح: "أَمْ تَغْدُوَانِ فَإِنَّ الرَّابِحَ الغَادِي"(١). والبيت الأول يفي بغرضه؛ لأنه استدعاهما، وأخبرهما بعد الإبل ورعاتها عن الحيّ، ويبنى عليه سرعة إقبالهما للعدو على الإبل، لكنه عالج بالبيت الثاني ما قد يقع في نفسي صاحبيه من الرغبة في الانتظار للاستيلاء على الإبل في غفلة الرعاة، فكشف عنه، وألحّ على المعنى المفهوم من البيت الأول، فأكده.

وقد نسب صاحب اللسان البيت الثاني لتَأَبَطَ شَرًّا، ونقل عن ابن بري القول بأنه لأعشى فهْمٍ(٢)، لكن نسبته للسليك في أغلب المصادر اللغوية ترجح أنه له، ورجح العلامة/ محمود محمد شاكر في تحقيقه للشعر والشعراء لابن قتيبة أن يكون البيت لتَأَبَطَ شَرًّا، وتغنى به السُّلَيْك(٣)، ويرد ما ذهب إليه مطابقة البيت للحدث المذكور في الأغاني؛ لأن كلامه قد يفهم منه أن القصة حدثت لتَأَبَطَ شَرًّا فأنشد البيتين، ثُمَّ حدثت للسليك فتغنى بما أنشده تَأَبَطَ شَرًّا.

(١) سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون: ص١٢٧.

(٢) يراجع لسان العرب: ج٤٥٧/٢ (ر و ح).

(٣) يراجع الشعر والشعراء: ج٢٩٨/١.

(٣) وصف الفرس عند الانطلاق إلى الإغارة

[من الوافر]

كَأَنَّ قَوَائِمَ النَّحَّامِ لَمَّا ... تَحَمَّلَ صُحْبَتِي أُصُلاً مَحَارُ

عَلَى قَرْمَاءَ عَالِيَةٍ شَوَاهُ ... كَأَنَّ بَيَاضَ غُرَّتِهِ خِمَارُ

وَمَا يُدْرِيْكَ مَا فَقْرِي إِلَيْهِ ... إِذَا مَا القَومُ وَلَّو أَوْ أَغَارُوا

وَيُحْضِرُ فَوْقَ جُهْدِ الحُضْرِ نَصًّا ... يَصِيْدُكَ قَافِلاً وَالمُخُّ رَارُ (١)

شبه الشاعر قوائم فرسه في بياضها بالمحار، وهو الصدف، وقيد ذلك بكونه في آخر النهار بعد العشي (أُصُلاً)؛ ليدل على شدة بياض القوائم؛ لأنها إذا كانت تشبه المحار في ذلك الوقت الذي تقل فيه الرؤية شيئاً فشيئاً فبياضه في وضوح النهار أشدّ. وجمع الأصيل، ليفيد أن بياض قوائم النحام على تلك الهيئة التي حدث عنها لاحظه في العديد من رحلاته. والحديث عن تحمل القوم (تحمل صُحْبَتِي)، وهو رحيلهم يشير إلى وقت الانطلاق إلى النهب والسرقة، وهو أول الليل حين يتلاشى ضوء النهار شيئاً فشيئاً، يقال: احْتَمَلَ القومُ وتَحَمَّلُوا: ذَهَبُوا وارتحلوا(٢). وألحق ببياض القوائم طولها وارتفاع الفرس (عَلَى قَرْمَاءَ عَالِيَةٍ شَوَاهُ)، والشَّوَى: اليدانِ والرِجلان والرأس(٣)، كأنه يقف فوق عقبة (قَرْمَاءَ)(٤)، ووصف العقبة بالعلو (قَرْمَاءَ عَالِيَةٍ)، للمبالغة في علوّ الفرس وارتفاعه، وفيها غلو؛ لأن الارتفاع المشار إليه غير ممكنٍ عقلاً وعادةً، لكنها مبالغة مقبولة لوقوعها في حيز (كأنّ)

(١) السليك أخباره وشعره: ص٥٢، ٥٣.

(٢) يراجع لسان العرب:ج١١/١٧٨ (ح م ل).

(٣) يراجع الصحاح: ج٦/ ٢٣٩٦ (ش و ى).

(٤) يراجع لسان العرب: ج١٢/٤٥٢ (ق ر م).

التي جلبت للتشبيه تقريباً للصّورة، ومعلوم أن ظهور كلمة التشبيه لا يعني تمام الاتفاق بين المشبه به والمشبه، ولو جاء الكلام على الأصل لقيل: كأن عَلَى قَرْمَاءَ عَالِيَةٍ شَوَاهُ، بعد قوله: كَأَنَّ قَوَائِمَ النَّحَّامِ لَمَّا تحمّل صُحْبَتِي أُصُلاً مَحَارُ، وإنما صحّ للشاعر إسقاط كلمة التشبيه من جملة بيان الارتفاع والعلو؛ لأن المحدّث عنه فيها وفي سابقتها واحد، وهو النحّام. والتقديم (عَلَى قَرْمَاءَ عَالِيَة شَوَاهُ) توكيد للمعنى وتقوية له، وكان الأصل أن يقال: شَوَاهُ عَلَى قَرْمَاءَ عَالِيَة. واستأنف ولم يأت بالواو للتوسط بين الكمالين مع وجود المانع؛ لأن الجملة المبتدأة (كَأَنَّ قَوَائِمَ النَّحَّامِ لَمَّا تحمّل صُحْبَتِي أُصُلاً مَحَارُ) فيها قيد لا يقصد إعطاؤه للثانية (عَلَى قَرْمَاءَ عَالِيَةٍ شَوَاهُ)، ولو جاءت الواو لفهم أن ارتفاع الأقدام كان في حال بياض الأرجل عند رحيل الصحب. وقد وفق الشاعر حين غاير فعبر عن يدي الفرس ورجليه في أول الأمر بالقوائم، وفي الجملة الثانية بالشوى[١].

ثُمَّ انتقل إلى وصف جبهة الفرس (كَأَنَّ بَيَاضَ غُرَّتِهِ خِمَارُ)، والغرّة بياض في جبهة الفرس، وهذا البياض في الأصل صفة لشعر الجبهة، والشاعر يصف البياض بأنه يغطي رأس الفرس، وهنا يظهر أن الكلام كناية عن طول الشعر الأبيض في جبهة الفرس ورأسه، الذي تدلى وتحرّك على الرأس كلمّا تحرّك الفرس، فظهر على هيئة عمامةٍ بيضاء أسدلت على رأسه. وإلحاح الشاعر على صفة البياض واضح في التصريح بصفة البياض مع إضافة الغرّة إليه، والغرة وحدها كافية لبيان الصفة؛ لأن الغرّة في اللغة البياض[٢]. وفصلت جملة طول الغرة عن جملة ارتفاع الفرس

(١) يراجع المرجع السابق: ج١٤/٤٤٨ (ش و ا)، ج١٢/٥٠١ (ق و م).
(٢) يراجع مقاييس اللغة: ج٤/٣٨٢ (غ ر).

وعلوه للتوسط بين الكمالين مع وجود المانع؛ لأن جملة الارتفاع قيدت شوى الفرس بكونها على عقبةٍ عاليةٍ، وأما جملة بياض الغرة وطولها فلا يلزم فيها أن تقيد بكونها فوق هضبةٍ عالية، ولهذا لم يعطف حتى لا يسري القيد الذي كان للجملة الأولى إلى الجملة الثانية فيضر بالمعنى. وقد راعى الشاعر ضم الكلام إلى بعضه مع ما فيه من الفصل بين الجمل الثلاث، فقد ربط الجملة الثانية بالأولى حين أضاف الشوى إلى ضمير النحام الذي صرح به في الجملة الأولى (شَوَاهُ)، وعاد في الجملة الثالثة فأضاف الغرة إلى ضمير النحام مرةً أخرى (غُرَّتِهِ). والحديث عن بياض غرة الفرس يدفع ما ذهب إليه بعض العلماء بأنه مات وارتفعت قوائمه(١)، وظهرت بواطن حوافره، التي شبهها بالصدف.

قدم الحديث عن هيئته من حسنه وارتفاعه المنبئ عن سرعة عدوه، وهذه السرعة يحتاجها الشاعر حين يغير للسلب والنهب، وحين يفرّ بالنهاب:

وَمَا يُدْرِيْكَ مَا فَقْرِي إِلَيْهِ ... إِذَا مَا القَومُ وَلَّو أَوْ أَغَارُوا

استفهم للتقرير لإفادة التحقق والتثبت، وقد دعاه هذا لبسط الكلام، فليس للمخاطب علم بشدة حاجة السُّلَيْك إلى ذلك الفرس السريع التي عبر عنها بفقره إِلَيهِ، وهذا إجمال يكفي لتحصيل المعنى لمن يعرفون طبيعة الشاعر، لكنه يفصل موضع فقره وحاجته بعد الإجمال باستقصاء حاله عند الإغارة، فله حالان: حين يفرّ بالنهاب (إِذَا مَا القَومُ وَلَّو)، وحين يغير للسلب (أَوْ أَغَارُوا). وفيه تصريح بطبيعة المهاجمين، فهم جماعة كبيرة العدد عبر عنها بالقوم. وكلامه يحمل كثيراً من المعاني، أجملها في (ما)، وكان يصحّ

(١) يراجع لسان العرب: ج٤٥٢/١٢ (ق ر م).

أن يقول: (إِذَا القَومُ وَلَّو أَوْ أَغَارُوا)، لكنه يشير إلى أدقّ أوقات الخطر حين يهاجم وحين يحصل مع صحبه على النهاب، ويحتال للانصراف بما حصل عليه من أرض أصحاب النهاب، كيف يخطط للهجوم وينفذه، وكيف يرتب صحبه، ويوجههم للانصراف، ويجعل منهم مدافعين في حال الملاحقة، كلها تفاصيل لا يسعها بيت شعرٍ أجملها الشاعر في (ما)، ولو جعلت زائدة لضاعت هذه الفائدة. والتولي (إِذَا القَومُ وَلَّو) أشد حالات الانصراف والمغادرة[١]، ولا يغني عنه لفظ الانصراف أو المغادرة، ففي التولي الحرص على الفرار وسرعة تنفيذه، وهذه الحال تحتاج لمثل فرس السُّلَيْك الذي حدث عن علوه وارتفاعه ليسجل قدرته على السرعة قبل ذلك. والترديد بين التولي والإغارة بـ(أو) يجعل من كل واحدٍ من الحالين من المخاطر مالا يقل عن الآخر. وقدّم حال الفرار (إِذَا القَومُ وَلَّو) على حال الإغارة (أَوْ أَغَارُوا)؛ ليشير إلى شدّة الفرار على نفسه وأنه أصعب الحالين؛ لأنه عندما يهاجم يكون معه فرسانه وحدهم، وعندما يحصل على السرقات يكون معهم الغنائم التي تثقل حركتهم. وفي مجالس ثعلب "إذا مَا الرَّكْبُ فِي نَهْبٍ أَغاروا"[٢]؛ صرّح بحال الإغارة وحدها، ولم يذكر حال التولي والفرار، وعبر بالركب، وهو لا يناسب المعنى العام؛ لأن المعنى العام يتكلّم عن صفات فرس السُّلَيْك، وهذا يناسبه التعبير بالقوم، ولا يناسبه التعبير بالركب؛ لأن الركب من يتنقلون على الإبل[٣]. ووصل الاستفهام بالواو لكمال الانقطاع بلا إيهام

(١) يراجع المرجع السابق: ج١٥/٤١٥ (و ل ي).

(٢) مجالس ثعلب، لأبي العباس، أحمد بن يحيى ثعلب (٢٠٠ –٢٩١هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار المعارف – مصر (١٩٦٠م): ص٣٧٧.

(٣) يراجع الصحاح: ج١/١٣٨ (ر ك ب).

لاختلاف الكلام عن سابقه في الخبر والإنشاء، فالتشبيه في البيتين خبر لفظاً ومعنى، والاستفهام إنشاء لفظاً ومعنى.

وَيُحْضِرُ فَوْقَ جُهْدِ الحُضْرِ نَصًّا ... يَصِيْدُكَ قَافِــلاً وَالمُخُّ رَارُ

لم يكتف ببيان علو فرسه المنبئ عن سرعته، فأضاف إليه أنه يرتفع في عدوه، كما يفيد الإحضار: وهو الارتفاع في العدو، وقيد الإحضار بكونه فوق جهد الحضر؛ لإظهار تقدمه وسبقه وعلوه في الوصف على غيره، لا يقارن به غيره من الحضر: وهي الخيل التي اشتهرت بالعدو(١)، فهو مقدم على غيره في هذا الوصف وإن بلغوا غاية جهدهم، وقد اعتنى بالمعنى فجاء بتمييزٍ يدل على الارتفاع (نَصًّا) والنص: العلو(٢).

وساق الشاعر دليلاً ماديًّا يؤيد دعواه، فعقبّ على كلامه بتذييلٍ (يَصِيدُكَ قَافِلاً وَالمُخُّ رَارُ)، والتذييل تعقيب الجملة بجملة تشتمل على معناها للتوكيد، يقول: إنه يسبق الصيد في عدوه ويصطادها في رجوعه عليها بعد أن تقدمها (قَافِلاً)(٣)، وهذه مبالغة مقبولة؛ لإمكانها عقلاً لا عادة. وفي شرح مقامات الحريري "يصيدك نافلاً"(٤) من النفل وهو الغنيمة(٥)، وهذه الرواية أقل مبالغةً؛ لأن الرواية الأولى أفادت أنه يسبق الطراد ثُمَّ يصيدها في رجوعه، وهذا أنسب في الحديث عن سرعته، أما كونه يحوز الغنيمة،

---

(١) يراجع مقاييس اللغة: ج٢/٧٦ (ح ض ر).

(٢) يراجع لسان العرب: ج١/١٧٣(ن ص أ).

(٣) يراجع الصحاح: ج٥/١٨٠٣ (ق ف ل).

(٤) شرح مقامات الحريري، لأبي العباس، أحمد بن عبد المؤمن القيسي الشريشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت (١٤١٣هـ – ١٩٩٢م): ج١/٣٩١.

(٥) يراجع مقاييس اللغة: ج٥/٤٥٥ (ن ف ل).

فهو لا يسجل مثل هذه المبالغة. وفصل بين الجملتين لكمال الاتصال؛ لأن الجملة الثانية توكيد للجملة الأولى، حيث قررت الجملة الأولى ارتفاعه في عدوه، فأنبأت عن سرعته، وقررت الجملة الثانية أنه يسبق الصيد ويصيده قافلاً في رجوعه عليها، وهذا دليل على السرعة. والجملة الحالية (وَالمُخُّ رَارُ) تكشف حركة المخ واضطرابه، ورار: ذائب[١]، يقول: إن مخه يكاد يذوب من أثر سرعة العدو، ويلحظ الناظر ذلك في حركة تظهر في رأسه. والتعبير بالجملة الفعلية التي تفيد التكرر والتجدد مقصود للشاعر، وهو أنسب في مدح الفرس؛ لأنّه أفاد أنّ ارتفاعه في عدوه مع تناهي سرعته من لوازمه التي تتكرر، ولا يطرأ على أحوال الفرس خمول أو تراخي.

وتمثل خفاف بن ندبة (ت٢٠هـ) بالتذييل السابق عند وصفه لخيلٍ بالسرعة، فقال:

إِذَا طَابَقْنَ لَا يُبْقِينَ زَخّا ... يَصِيْدُكَ قَافِلاً وَالْمُخُّ رَارَا[٢]

يقول: إن الخيل بلغ من سرعتها أنها تضع أقدامها في موضع أيديها أثناء العدو، كما دلّت عليه المطابقة (إذا طابقن)[٣]، فتسبق غيرها، لا تترك واحداً يسبق إلا سبقته، وحذف مفعول الإبقاء إيجازاً، وأفاد السرعة بلفظٍ يدلّ على المدافعة والغضب والسرعة (زخا)[٤]، وذكر مثلاً مشهوراً ضرب بين العرب لسرعة الخيل (يصيدك قافلاً والمخ رارا)، نقل هذا المثل من السُّلَيْك.

---

(١) يراجع لسان العرب: ج٣١٣/٤ (ري ر).

(٢) البيت من الوافر لخفاف بن ندبة في ديوانه، تحقيق: نوري حمودي القيسي، مطبعة المعارف، بغداد – العراق (١٩٦٨م): ص١٠٧.

(٣) يراجع الصحاح: ج١٥١٢/٤ (ط ب ق).

(٤) يراجع لسان العرب: ج٢١/٣ (ز خ خ).

(٤) أثر طول الرحلة على فرسه

[من الوافر]

كَأَنَّ مَنَاخِرَ النَّحَّامِ لَمَّا ... دَنَا الإِصْبَاحُ كِيرٌ مُسْتَعَارُ[١]

شبه منخر فرسه في سعتها بكير كثر استعماله، والكير: الزق، والزق وعاء من جلدٍ يتخذ للشرب[٢]، كنى بهذا عن طول الرحلة التي ظهر لها أثر في سعة مناخر فرسه لتتابع جري أنفاسه مع سرعتها من إجهاد الرحلة. وجمعه (مَنَاخِرَ)؛ ليناسب هيئته من السعة التي أفادها التشبيه، مع احتمال أن يكون جمعه ليفيد تعدد الرحلة، وأن حال الفرس المشار إليها جربت معه في رحلات عديدة، وعلى هذا الوجه يظهر فضل الحديث عن الفرس باسمه (النَّحَّامِ)، فالرحلات المتعددة كانت من فرسٍ واحدٍ، ولو عدل إلى لفظ الفرس ما كان له هذا الأثر في المعنى ولاحتمل أن تكون الرحلات مع عدد من الخيل، فيكون الكلام مدحاً للفارس على صبره على طول الرحلة، لا مدحاً للفرس. والصورة دقيقة تحتاج إلى البيان والإيضاح، وسبيل ذلك كثرة القرائن اللفظية، وهذا سرّ استعمال التشبيه المرسل، صرح بأداة التشبيه التي تفيد قوّة الشبه وتوكيده، وقيد المشبّه بأن حاله الوارد يكون عند دنو الإصباح، وقيد المشبه به بكونه مستعاراً، والتقييد يساعد في الحصول على وجه الشبه، فالتقييد بدنو الإصباح يفهم منه أن الرحلة كانت ليلاً، وجري الفرس مع طول الرحلة مع الليل يشي بطول خبرته وحسن تدريبه، حيث يشق الليل في سرعةٍ هادرةٍ ليخلص الفارس ممن يطاردونه من أصحاب النهاب المتتابعة الذين ينال منهم السُّلَيْك. وأما تقييد المشبه به بكونها مستعاراً فبيان

---

(١) السُّلَيْك بن السُّلَكَة أخباره وشعره: ص٥٣.

(٢) يراجع مقاييس اللغة: ج٥/١٤٩ (ك ي ر)، ولسان العرب: ج١٠/١٤٣ (ز ق ق).

حسنه أن المستعير للشيء يعجل استعماله ليكفي حاجته منه قبل أن يعيده لصاحبه، فلا يكاد يخلو الكير من الماء فينطبق الجلد، وهذه مبالغة مقبولة لإمكانها عقلاً، فقد يعيد المستعير السقاء لصاحبه، وهو ممتلئ بالماء شكراً له على مساعدته، فلا يخلو السقاء من الماء، فيظل على حاله من السعة، ولا ينطبق الجلد على بعضه. وفي صيغة اسم المفعول (مُسْتَعَارُ) سعة وتعميم لتنقل الكير بين كثيرين يكون منهم الاستعمال.

والتقييد بدنو الإصباح هو الذي أفاد الرحلة؛ ولو لم يذكر هذا القيد لم يظهر المعنى وافياً؛ لأن سعة منخر الفرس من المعاني المشهورة في مدح الفرس، قَالَ بِشْرُ بْنُ أَبي خَازِمٍ:

كَأَنَّ حَفِيْفَ مَنْخِرِهِ إِذَّا مَا ... كَتَمْنَ الرَّبْوَ كِيْرٌ مُسْتَعَارُ(١)

فاضل بشر بين فرسه وغيره، فجعله يتابع العدو في الوقت الذي تجهد فيه الخيول، كنى عن تتابع عدوه بأن لمنخره حفيفاً، فالهواء يخرج من منخره وله صوت يسمع، وكنى عن تخلف الخيول عن الجري بكتم الربو، "والرَّبْوُ: النَّفَسُ الْعَالِي"(٢)، اجهدت الخيل فتوقت عن الجري، فلم يظهر لها النفس العالي الذي يكون عند العدو. وبيت السُّلَيْك مقدم على بيت بشر؛ لأن السُّلَيْك جعل عدو فرسه ليلاً، وكان ذلك العدو بصاحبه، وهو يزيد المشقة والتعب على الفرس، لكنه يتابع الرحلة، بخلاف بشر الذي جعل عدو فرسه في مضمار السباق، وهذا يكون في النهار، وينطلق الفرس وحده دون أن يحمل صاحبه.

---

(١) البيت من الوافر لبشر بن أبي خازم في ديوانه، تحقيق: مجيد طراد، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى (١٤١٥هـ -١٩٩٤م): ص٦٧.

(٢) لسان العرب: ج١٤/٣٠٥ (ر ب و).

والبيت يشير إلى توقيت السطو وتوقيت العودة، يكون السطو في الليل، يعقبه الرجوع إلى أرضه التي يقيم فيها، وفيه إشارة إلى طبيعة السطو، فإنه يكون على أماكن بعيدة عن أرض السُّلَيْك، لأن عدم الاعتداء على المجاورين يضمن له السلامة والنجاة بالنهاب.

(٥) وصف خيول أصحابه في طريقها للإغارة

[من الوافر]

تَرَاهَا مِن يَبِيْسِ المَاءِ شُهْباً ... مُخَالِطَ دِرَّةٍ مِنْهَـا غِرَارُ(١)

يصور السُّلَيْك الخيول أثناء سرعتها، فيشبهها بالشهب في سرعة مرورها ولونها من البياض واللمعان. ودلّ على قوة مشابهتها للشهب بيبيس الماء، وهو العرق الذي جفّ على متونها، فصار أبيضاً(٢). وكلمة التشبيه هي فعل الرؤية (تَرَاهَا)، والرؤية وضوح الإدراك وكمال التحقق والانكشاف، وأطلق الرؤية برهاناً على صحّة قوله، يدرك صورة الخيل التي قدمها الشاعر كلُّ من يرى الخيل. وتمام الوضوح المستفاد من الرؤية يناسب الإضمار في موضع الإظهار **(تَرَاهَا)**، ولو أظهر على الأصل لقال: ترى الخيل شهباً من يبيس الماء. وقدم ما يدل على العدو والجهد وهو العرق اليابس (تَرَاهَا مِن يَبِيسِ المَاءِ شُهْباً)، يتوالى ثُمَّ يجف إذا كثر، ولو جاء على الأصل لقال: تَرَاهَا شُهْباً مِن يَبِيسِ المَاءِ، قدم ما يعجل بالصورة في ذهن السامع. ودلّ على صحة الخيل وقوة نشاطها بتشبيهها بالشهب التي تمرّ في سرعةٍ خاطفة لا تكاد تدرك. وأضاف إلى لون البياض الملحوظ من الشهب بريق اللون ولمعانه (مُخَالِطَ دِرَّةٍ مِنْهَا غِرَار) يظهر العرق ثُمَّ يجف، وكلما درَّ أضفى على ما يبس قبل ذلك لمعاناً، يقال: درَّ العرقُ: سال. والغرار: النقصان(٣)، وإسمية الجملة (مُخَالِطَ دِرَّةٍ مِنْهَا غِرَارُ) ترمي إلى ثبات حال الخيل على ذلك، والجملة احتراس؛ لأن يبس العرق المتقدم على إطلاقه

---

(١) السليك أخباره وشعره: ص٥٤.

(٢) يراجع مقاييس اللغة: ج٣/٣١٧ (ي ب س).

(٣) يراجع لسان العرب: ج٤/٢٨٠ (د ر ر)، ج٥/١٧ (غ ر ر).

يحتمل العدو والسرعة التي قصدها الشاعر، ويحتمل مقاربة الهلاك والإشراف عليه، فجاء التتابع بين سيلان العرق وجفافه بعد ذلك احتراساً من المعنى غير المراد. وقيد العرق بكونه منها (مُخَالِطَ دِرَّةٍ مِنْهَا غِرَار) حتى لا ينصرف الذهن إلى قائدي الخيل، بأن العرق سال حتى عمّ الخيل وكثر فجف عليها، وظهر منها الصورة التي أثبتها الشاعر. وأخذ طُفَيْل الغَنَوِيّ (ت١٣ق هـ) المعنى من وادٍ آخر فقال:

كَأَنَّ يَبِيسَ المَاءِ فَوقَ مُتُونِهَا ... أَشَارِيرُ مِلْحٍ فِي مَبَاءَةِ مُجْرِبِ(١)

شبه العرق الجافّ على ظهور الخيل بملحٍ طليت به إبل جربى مجتمعة في معطنٍ، وهو دون ما جادت به قريحة السُّلَيْك، فقد جعل السُّلَيْك الصورة تظهر على عموم الخيل، وقيد طفيل الغنوي الصورة بكونها تظهر على متون الخيل وحدها، فعلم أنها وحشية، ولو كانت مستأنسة ما كشفت ظهورها. وجعل الطفيل الصورة مأخوذة من إبلٍ جربى حبست في معطنها، بخلاف السُّلَيْك الذي شبهها بالشهب فأفاد سرعتها مع ما يفهم من ارتفاع الشهب من نشاط الخيل؛ لسرعتها وقوتها تمر مسرعة متحفزة كأنها تتحرك في الهواء. هذا بالإضافة إلى اللمعان المستفاد من استعمال الشهب في بيت السُّلَيْك، فلا يوجد له نظير في بيت طفيل. وما أفادته مخالطة الدرة للغرار من تجدد سيل العرق وتجدد جفافه.

---

(١) الأشارير: جمع إشرارة، يقال: شَرَّرْتُ الأَقِطَ واللَّحْمَ وَالْمِلْحُ وَنَحْوُهُ ، إذا جَعَلْتَهُ عَلَى خَصفَةٍ لِيَجِفَّ. والمباءة: معطن الإبل.

يراجع لسان العرب: ج٤/٤٠١ (ش ر ر)، الصحاح: ج١/٣٧ (ب و أ).

(٦) إغارة السُّلَيْك على حي بني شيبان

[من الطويل]

وَعاشِيَةٍ رُجٍّ بِطَانٍ ذَعَرْتُهَا ... بِصَوت قَتِيلٍ وَسْطَهَا يُتَسَيَّفُ
كأنَّ عليهِ لَوْنَ بُرْدٍ مُحَبَّرٍ ... إذا مَا أَتَاهُ صَارِخٌ مُتَلَهِّفُ
فَبَاتَ لَهُ أَهْلٌ خَلَاءٌ فِنَاؤُهُمْ ... وَمَرَّتْ بِهِمْ طَيْرٌ فَلَمْ يَتَعَيَّفُوا
وَكَانُوا يَظُنُّوْنَ الظُّنُوْنَ وَصُحْبَتِي ... إِذَا مَا عَلَوا نَشْزاً أَهَلُّوا وَأَوْجَفُوا
وَمَا نِلْتُهَا حَتَّى تَصَعْلَكْتُ حِقْبَةً ... وَكُنْتُ لِأَسْبَابِ المَنِيَّةِ أَعْرِفُ
وَحَتَّى رَأَيْتُ الجُوْعَ بِالصَّيْفِ ضَرَّنِي ... إِذَا قُمْتُ تَغْشَانِي ظِلَالٌ فَأُسْدِفُ[١]

خرج السُّلَيْك مع رجلين يقال لهما عمرو وعاصم؛ ليغير على حي بني شيبان، فوجدوا بيتاً منفرداً، فأتى السُّلَيْك البيت من مؤخره، وانتظر صاحباه، فدخله، فوجد صاحب الإبل، فقتله، واقتاد الإبل حتى بلغ صاحبيه[٢].

يخبر السُّلَيْك عن كثرة الإبلِ التي أغار عليها وقت العشيّ، كما أفادت (ربَّ) المقدرة، مع سعة أخفافها[٣]، والوصف (بِطَانٍ) محتمل، فهو يحتمل أن بطونها امتلأت بالطعام، أو أنها تحمل في بطونها صغاراً، ولم يأت بالواو بين الوصفين (رُجٍّ بِطَانٍ)؛ لأنه أراد أن الوصفين اجتمعا في

(١) السُّلَيْك بن السُّلَكَة أخباره وشعره: ص٥٩ ، ٦٠.

(٢) يراجع الأغاني: ج٢٠/٢٤٢.

(٣) يراجع الزاهر في معاني كلمات الناس، لأبي بكر، محمد بن القاسم بن محمد بن بشار الأنباري (ت٣٢٨هـ)، تحقيق: د/ حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢م: ج٢/٢٢١.

الإبل، وفي الأغاني رواية تقطع الاحتمال "رَاحَتْ بِطَاناً"[1]، امتلأت بطونها بالطعام قبل رواحها من المرعى إلى بيت صاحبها، قيد رواحها بحال كونها بطاناً. وتقدير (ربَّ) في أول البيت يجعل من المناسبة التي حدّدها علماء الأدب للأبيات إحدى الحوادث التي وافقت كلام الشاعر، وليس الحديث خاصًّا بأبل بني شيبان. والإبل البطان بطيئة الحركة، وذعرها يجعل من الأسلوب كناية عن قسوة السُّلَيْك وشدة بطشه بصاحب الإبل. وتقدير حرف التكثير (ربَّ) يبشر بقصد الشاعر للإيجاز، فقد طواها؛ لجواز ذلك مع الاستدلال عليها بجر الاسم الواقع بعدها. وطوى ما يبين عن تسلله للبيت الذي أغار عليه، ومراقبته للراعي، وهجومه عليه، وما كان بينهما من صراع، وصرّح بما ينبئ عن ذلك (ذَعَرْتُهَا بِصَوت قَتِيلٍ وَسْطَهَا يُتَسَيَّفُ)؛ لأن صيحة القتيل التي ذعرت منها الإبل بعد ضربه بالسيف يسبقها التسلل لموضع الإبل وصراع الراعي الذي ينتج عنه مقتله بالسيف وذعر الإبل من صياحه. ولو جاء الكلام على الأصل لقيل: ضربته بسيفي فصاح فذعرت.

واستعمال صيغة المبالغة (قَتِيلٍ) في الدلالة على المفعول (مقتول) تركز على المبالغة في إيذاء المقتول، قبل أن تذكر الجملة الوصفية (وَسْطَهَا يُتَسَيَّفُ)، حيث دلّ التسيف (يُتَسَيَّفُ) ببنائه لما لم يسم فاعله مع إفادته للتكرر على كثرة ضربات السيف وتتابعها وسرعتها مع تجددها، كأن الذي قام بها عدد غير معلوم من الناس لا يوقف عليهم لكثرتهم، وهي من أمارات قوة السُّلَيْك وقسوته، وفي المستقصى في أمثال العرب: "بضرب قتيلٍ

(١) الأغاني: ج٢٠/٢٤٢.

وسطها يتسيف"[١]، أفادت الرواية أن الذي ذعر الإبل ضرب القتيل، والتسيف بعده يقيد هذا الضرب بكونه بالسيف، فبين الضرب والتسيف إيضاح بعد إبهام. وأفاد ظرف المكان (وَسْطَهَا) أن مفاعلة السُّلَيْك لصاحب الإبل كانت وسط الإبل، ولا يكون ذلك إلا مع استبسال صاحب الإبل في حمايتها، ألقى بنفسه على اللص للذود عن إبله والدفاع عنها، ومع ذلك كانت الغلبة للسُّلَيْك. وقدم الظرف على متعلقه (يُتَسَيَّفُ) لإظهار قوة صاحب الإبل؛ ليتوصل بها إلى أن السُّلَيْك فاق هذه القوة وبالغ في ضربه بالسيف، ولو جاء الكلام على الأصل لقيل: يُتَسَيَّفُ وَسْطَهَا.

ورواية البيت في الأغاني "بِسوط قَتِيلٍ وَسْطَهَا يُتَسَيَّفُ"[٢] تجعل ذعر الإبل بالسوط، ويكون هذا بعد انتهاء العراك بين اللص وصاحب الإبل، وفيه إخبار بالفوز بالإبل قبل أن يذكر ما يدل على ما سبق هذا الفوز من عراكٍ وقتلٍ لصاحب الإبل (وَسْطَها يُتَسَيَّفُ)، فذعر الإبل بالسوط يهدي لما بعده قبل أن يذكر في الكلام.

كَأَنَّ عَلَيهِ لَوْنَ بُرْدٍ مُحَبَّرٍ ... إِذَا مَا أَتَاهُ صَارِخٌ مُتَلَهِّفُ

والبرد: كِساء مُرَبَّع أَسْوَدُ يلتحفُ به، والثوب الحبير: الجديد الناعم[٣]، شبه ثياب القتيل التي نضح عليها الدم، وطال حتى اسود بسواد البرد المحبر، كنى بهذا التشبيه عن طول بقاء القتيل على حاله، لا يشعر به أحد من أهله، حتى اسودّ الدم الذي غطى ثيابه ونضح على الأرض من حوله، وأكّد

(١) المستقصى في أمثال العرب، لأبي القاسم، محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري (ت٥٣٨هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت، الثانية (١٩٨٧م): ج٣٣٢/١.

(٢) الأغاني: ج٢٤٢/٢٠.

(٣) يراجع لسان العرب: ج٨٧/٣ (ب ر د)، ج١٥٩/٤ (ح ب ر).

التشبيه باستعمال (كأن) التي يؤتى بها لبيان قوة المشابهة بين المشبه والمشبه به، كما أكّد بالتقديم (كأنَّ عليهِ لَوْنَ بُرْدٍ مُحَبَّرٍ)، ولو جاء الكلام على الأصل لقيل: كأنَّ لَوْنَ بُرْدٍ مُحَبَّرٍ عليهِ. وحرص على إبراز وجه الشبه فصرح به (كأنَّ عليهِ لَوْنَ بُرْدٍ مُحَبَّرٍ)، ولم يقيد اللون بالسواد؛ لأن هيئة القتيل ليست سواداً خالصاً. ويلاحظ أن الصورة التي قدمها الشاعر هي صورة القتيل عندما يرى من بعيدٍ، يظن الناظر إليه أنه نائم ملتحف ببردته، فإذا اقترب منه أدرك حقيقة حاله، وهنا يظهر حسن القيد بعد ذلك (إذا ما أتاهُ صارِخٌ مُتَلَهِّفُ)، فالإتيان يكون بسهولة، وإتيان القتيل بسهولة يكون عند جهل الآتي بحاله، فيتحول عند معاينته من السهولة واللين ويصرخ طلباً لمن حوله ويتلهف مجيئهم (إذَا مَا أَتَاهُ صَارِخٌ مُتَلَهِّفُ)، لا يعلم عنه إلا كونه مبالغاً في الصراخ والتلهف لحضور أهل القتيل. والكلام يصح بدون (ما) التي أقحمت بعد الظرف (إذا ما أتاهُ صارِخٌ مُتَلَهِّفُ)، وليس ذكرها وعدمه سواء، وقد استقر العلماء على كونها مؤكدة، لكنهم لم يفصلوا القول في بيان وجه هذا التأكيد، وهو قريب لمن تأمله، حيث أجمل فيها ما يأتي بعدها من كلام (إذا ما)، ثُمَّ صرح بما أجمل (أتاهُ صارِخٌ مُتَلَهِّفُ)، وهذا كثير في العربية، ومثله الإجمال في ضمير الشأن والقصة كما في قول الله تعالى: ﴿... فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[الحج:٤٦]، ويصح أن يحمل عليها نحو قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ...﴾[آل عمران:١٥٩]، وقول الله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً...﴾[المائدة:١٣]. وسرّ الاستعمال في البيت أن الشاعر أراد أن يلحّ على المعنى ويكرره على ذهن السامع مرتين لتأكيده، ففيه الفجأة المستفادة من الإتيان، ولو كان الحضور بجلبةٍ لعبر بالمجيء، وفيه المبالغة في الصراخ (صارِخٌ)، وفيه المبالغة في التلهف (مُتَلَهِّفُ) على

صيغة اسم الفاعل في اللفظين، ولا يكون هذا إلا إذا كان هذا الصارخ المتلهف من أهل القتيل؛ لأن غير الأهل لا يفعلون ذلك في الغالب. وتقييد التشبيه بإتيان الصارخ المتلهف (إذا ما أتاهُ صارِخٌ مُتَلَهِّفُ) يضيف للتشبيه، ولو لم يذكر هذا القيد لتوهم السامع أن التشبيه الوارد كان للقتيل بعد أن ضرب بالسيف (وَسْطَهَا يُتَسَيَّفُ)؛ لأن التشبيه وقع بعد الحديث عن التسيف. والبيت بتمامه كناية عن فرار السُّلَيْك بالإبل من غير أن يشعر أحد، فقد سال دم القتيل وغطى بقعة حوله، وطال ذلك حتى اسودّ الدم، وخفي على أهله ما كان معه، فأقبل من حضر منهم على موضع الإبل بيسرٍ، وفجأه ما عاينه، فبالغ في الصراخ والتلهف. وقد فصل البيت الثاني عن الأول لكمال الانقطاع بينهما؛ لاختلاف الجملتين في الخبريّة والإنشائيّة، فالأولى إنشائيّة لفظاً ومعنى إنشاء غير طلبي، والثانية خبريّة لفظاً ومعنى. والكناية بالبيت عن فراره بالإبل من غير أن يشعر أحد يهدي إلى حرمان أهل المقتول منها، وهنا يظهر حسن ترتيب الكلام على البيت الذي يليه بالفاء:

فباتَ له أهلٌ خَلاء فِناؤُهم ... ومَرَّت بهمْ طَيْرٌ فلم يَتَعَيَّفوا

وكانوا يَظُنُّونَ الظُّنُونَ وصُحْبَتي ... إذا ما عَلَوا نَشْزاً أَهلُّوا وأوجَفوا

اقتاد الإبل جميعها، ولم يترك منها شيئاً، فخلي فناء البيت من الإبل (فباتَ له أهلٌ خَلاء فِناؤُهم)، كنى بهذا عن فوزه. وأسند المبيت للمقتول (فبات)، فأكد المعنى الحاصل من التشبيه قبل ذلك (كأنَّ عليهِ لَوْنَ بُرْدٍ مُحَبَّرٍ)، فإنه كنى بالتشبيه عن خفاء أمر المقتول على أهله، وأنهم لم يشعروا به، فقضى ليله يسيل الدم منه على الثياب والأرض حتى احتدم لونه فشبهه بالبرد المحبر. وأسند الخسارة والحرمان لأهل المقتول (له أهلٌ خَلاء فِناؤُهم)؛ لأنّ الأهل هم الذين يصير المال إليهم، ولا ينتفع به المقتول. وأبان

عن اجتماع الأهل بعد غفلتهم بالتقديم (له أهلٌ)، فأكّد بتقديم الجار والمجرور (له) وجود أهل للمقتول، وأكّد بتقديم الصفة على الموصوف (خَلاء فِناؤُهم) تمام خسارتهم ولو جاء الكلام على الأصل لقيل: (أهله فِناؤُهم خَلاء)، وفي جمهرة الأمثال: "قَبَاتَ لَهَا أهلٌ خلاءٌ فناؤهم"(١)، أعاد الضمير في هذه الرواية على الإبل المفتتح بها كلامه (وَعاشِيَةٍ رُجِّ بِطَانًا ذَعَرْتُهَا). وألحّ الشاعر على بيان تمام فوزه بالإبل، وتمام خسارة أهل المقتول بكناية أخرى وصلت بها للتوسط بين الكمالين مع عدم وجود المانع لاتفاقهما في الخبريّة لفظاً ومعنى (ومَرَّت بهمْ طَيْرٌ فلم يَتَعَيَّفوا)، يقال: "عَافَت الطَّيْرُ إِذَا كَانَتْ تَحُومُ عَلَى الْمَاءِ وَعَلَى الْجِيَفِ تَعِيفُ عَيْفاً وَتَتَرَدَّدُ وَلَا تَمْضِي تُرِيدُ الْوُقُوعَ، فَهِيَ عَائِفَة"(٢)، أراد خلاء المنزل مما يطعمون به، ويلقون ما يتخلف منه فتأكله الطير التي كانت تحلق فوق المنزل قبل ذلك انتظاراً لما يلقى، وهذا مفهوم من ظن الطير الظنون (وكانوا يَظُنُّونَ الظُّنُونَ)، بدأت الطير رحلتها نحو بيت القتيل الذي تعودت العيافة فوق بيته انتظاراً لما يلقى من مخلفات النحر، وكانت تعتقد قبل أن تصل أنها ستنال ما تعودته، لكن اعتقادها لم يوافق الواقع، فعبر عنه بالظن الموضوع للدلالة إما على اعتقادٍ يقيني يوافق الواقع، أو اعتقاد مشكوك فيه مخالف للواقع، والسياق والمقام هنا يوجهان الظن على معنى الشك، فهو مخالف للواقع، وفي الفاخر في الأمثال: "ومَرَّت لَهُمْ طَيْرٌ فلم يَتَعَيَّفوا"(٣)، أفادت الرواية أن أهل القتيل لكثرة

(١) جمهرة الأمثال: ج٢/٥٨.

(٢) لسان العرب: ج٩٣/٢٦٠ (ب ر د).

(٣) الفاخر في الأمثال، للمفضل بن سلمة بن عاصم الضبي (ت٢٩١هـ)، تحقيق: محمد عثمان، دار الكتب العلمي، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى (٢٠١١م): ص١٧٤.

نحرهم انقطعت الطير عليهم دون غيرهم؛ لأنها وجدت كفايتها عندهم، قصرت الطير على أهل القتيل دون غيرهم قصراً حقيقياً ادعائياً، والأسلوب كناية عن غنائهم قبل أن يقدم عليهم السُّلَيْك. والفاء تنفي أقل العيافة (فلم يَتَعَيَّفوا)، حيث مرت الطير مسرعة، وهي أفواج متعددة، كما هو مفهوم من التنكير (طَيْرٌ)، ولم تتمهل ولو وقتاً يسيراً، وهو يرمى بهذا إلى انطلاق الطير لمكانٍ آخر يتعيفون عليه، وهذا ينقل الحديث للموضع الذي صارت إليه الإبل، وهو الموضع الذي اقتادها إليه السُّلَيْك وصاحباه (وصُحْبَتي إذا ما عَلَوا نَشْزاً أَهلُّوا وأوجَفوا). ويصح إسناد الظن لأهل القتيل (وكانوا يَظُنُّونَ الظُّنُونَ)، على أن تجعل العبارة كناية عن حيرتهم وعدم اهتدائهم لحقيقة ما كان مع القتيل والإبل، كثرت الأفكار، ولم يوقف على حقيقة الأمر، وهذه الكناية تهدي لكناية أخرى، وهي فرار السُّلَيْك بالإبل ونجاحه في صنيعه، ومما يقوي هذا الوجه رواية البيت في الأغاني "وباتوا يَظُنُّونَ الظُّنُونَ"(١).

ثُمَّ انتقل لمطابقة حزن أهل القتيل بفرح الفارين بالإبل (وصُحْبَتي إذا ما عَلَوا نَشْزاً أَهلُّوا وأوجَفوا) والنشز: ما ارتفع من الأرض، والإهلال: رفع الصوت، والإيجاف: السير السريع(٢)، وهو يريد أنهم انتقلوا بالإبل يسرعون بها للفرار، ويصيحون فيها كلما مروا بمرتفع من الأرض، وسبب ذلك معلوم، وقد أشار إليه في الاستفتاح (وَعاشِيَةٍ رُجِّ بِطَانًا)، فالإبل بطان لا تقوى على سرعة السير. ورغبة السُّلَيْك في توكيد المعنى وإعادته على سمع المتلقي مع حمله على التفكر فيه واضحة في التأكيد بـ(ما) بعد الظرف، فإن

(١) الأغاني: ج٢٠/٢٤٣.

(٢) يراجع لسان العرب: ج٥/٤١٧ (ن ش ز) ، ج١١/٧٠١ (هـ ل ل)، ج٩/٣٥٢ (و ج ف).

الظرف مع (ما) وحدها يفيد أن شيئاً كان من الصحبة (وصُحْبَتي إذا ما)، ويوقف على حقيقة هذا الإجمال بالتفصيل بعدها (عَلَوا نَشْزاً أَهلُّوا وأوجَفوا)، وهو يحرك الذهن لمطابقته بالإجمال في (ما)، فإذا عاد السامع إلى (ما) أيقن أنها موغلة في الخفاء، كأن الشاعر بهذا الاستعمال يفيد أن التفصيل المذكور هو بيان تقريبي لحال الفارين بالإبل. والتنكير (نَشْزاً) يشي بطول الرحلة التي انتقل أصحابها بين كثيرٍ من المرتفعات. والترتيب بين الإهلال والإيجاف واضح؛ لأن صياحهم لإخافة الإبل وحملها على السرعة ثُمَّ سرعتهم وراءها هو الترتيب المتوقع، ومع هذا لم تأت الفاء بأن يقال: أَهلُّوا فأوجَفوا، وهو مقصود للشاعر؛ لأن مراده اختلاط رفع الصوت مع السرعة خلف الإبل، فالإهلال يحصل أثناء إيجاف، والإيجاف يحصل أثناء إهلال، لا يتميز كل منها بزمنٍ مستقلّ، والعطف بالواو في هذه الحال أوضح؛ لأنها لمطلق التشريك من غير التقييد بالزمن. والعطف بين جملتي البيت للتوسط بين الكمالين مع عدم وجود المانع، اتفقت الجملتان في الخبريّة لفظاً ومعنى، وحسَّن الوصل اتفاق الجملتين في الخبريّة والفعلية. ويصح أن تكون الجملة الثانية (وصُحْبَتي إذا ما عَلَوا نَشْزاً أَهلُّوا وأوجَفوا) حالية، والمعنى أن أهل القتيل كثرت ظنونهم وحارت أفكارهم للوقوف على حقيقة أمر القتيل والإبل في الوقت الذي ابتعد فيه المغيرون، وأسرعوا بالإبل من مرتفعٍ إلى مرتفعٍ.

وكل ما تقدم من الحديث عن القتل والنهب والفرار بالإبل مع قسوة القلب يثير في نفس السامع السؤال عن سبب فعل ذلك، وكيفية إحكام السلب والقتل ثُمَّ الفرار؟ والشاعر يسعف عقل المتلقي ويقدم له الجواب مستأنفاً بالواو؛ ليصح استقلاله، ويذكر بين يدي كل حادثةٍ تشبه هذه الحادثة:

وَمَا نِلْتُهَا حَتَّى تَصَعْلَكْتُ حِقْبَةً ... وَكُنْتُ لِأَسْبَابِ المَنِيَّةِ أَعْرِفُ
وَحَتَّى رَأَيْتُ الجُوعَ بِالصَّيفِ ضَرَّنِي ... إِذَا قُمْتُ تَغْشَانِي ظِلالٌ فَأُسْدِفُ

يقول: إنه برع في القتل والسلب والفرار بالغنائم لما له من تجربةٍ، فإنه عاش بين الصَّعَاليك فترةً طويلة، تعلم فيها الإغارة والقتل، وقويت نفسه على مواجهة المخاطر، وأجاد فداء نفسه منها، وساعد على ذلك حاجته وفقره، وأنه لم يجد أقل أسباب الحياة.

قصد الشاعر الصَّعَاليك، وبالغ واجتهد في مجاراتهم في أفعالهم، كما تفيد صيغة التفعل (تَصَعْلَكْتُ)، ومضى عليه وهو على تلك الحال زمان طويل أشار إليه بحقبة (حِقْبَةً)، والحقبة من الزمان مدة غير معلومة(١)، والسياق هنا يوجه إلى أنها مدة طويلة، أبهمها الشاعر، وأشار إلى طولها باستعمال (حتى) الغائية، ومعناها: إلى أن. وسعادة الشاعر بحاله يبديه النيل (وما نِلْتُها حتَّى تَصَعْلَكْتُ حِقْبَةً)، لا يتألم للقتل أو الإضرار بالناس، بل يسعد بمغافلتهم والإضرار بهم، ويرى ما يحصل عليه منهم جائزةً لها في نفسه سعادة. ويبنى على المبالغة في مجاراة الصَّعَاليك الحنكة والدربة وحسن التصرف في تفادي المخاطر، وقد كنى عن حنكته في مواجهة المخاطر (وكُنْتُ لأَسْبابِ المَنِيَّةِ أَعْرِفُ)، فأسباب المنية هي الطرق التي يكون بها مفارقة الإنسان للحياة، وهو يزعم أن تمكنه من معرفة تلك الأسباب محقق ، كما أفاد الكون الماضي (وكُنْتُ)، مؤكداً كلامه بالتقديم (لأَسْبابِ المَنِيَّةِ أَعْرِفُ)، ولو جاء الكلام على الأصل لقيل: وكُنْتُ أَعْرِفُ أَسْباب المَنِيَّةِ، وفي الأغاني: "وكدت لأَسْبابِ المَنِيَّةِ أَعْرِفُ"(٢)، وهذه الرواية

(١) يراجع لسان العرب: ج٣٢٦/١ (ح ق ب).
(٢) الأغاني: ج٢٤٣/٢٠.

دون الرواية بالكون الماضي في المعنى؛ لأنها أفادت قرب معرفته لأسباب المنايا، بخلاف رواية الكون الماضي التي أفادت تحققه من معرفة أسباب الموت والوقوف عليها. واللام (لأَسْبابِ) هي لام انتهاء الغاية تفيد أنه تقصى أسباب الموت وأتى عليها جميعاً، فلا تتمكن منه لإحاطته. ومثل هذه الحنكة لا تكون إلا بعد تجارب عديدة للشاعر مع المجرمين، يشاركهم حتى تعلم منهم كل شيءٍ، وقد أشار إلى تلك التجارب قبل أن يفيد إحاطته بأسباب المنايا (وما نِلْتُها حتَّى تَصَعْلَكْتُ حِقْبَةً)، ولم يعطف بين الجملتين بالفاء لتفيد ترتب خبرته وحنكته على صحبة الصَّعَاليك، بل عطف بالواو؛ لأن صحبته للصعاليك لم تنته، فقد صاحبهم، وهو يصاحبهم، ولو جاءت الفاء لفصلت بين زمانين انتهى الأول الذي كان فيه التصعلك تلاه الثاني الذي كان فيه الحنكة وإتقان النهب والقتل. وقد عطف على التصعلك ما يفيد إضرار الجوع والفقر به:

وحَتَّى رَأَيْتُ الجُوْعَ بِالصَّيْفِ ضَرَّنِي ... إِذَا قُمْتُ يَغْشَانِي ظِلَالٌ فأُسْدِفُ

كنى عن شدة فقره بتحقق ضره بالجوع (وحتى رَأَيْتُ الجُوعَ بالصيف ضَرَّنِي)؛ لأن حاجة الإنسان إلى الطعام في الصيف أقل من حاجته للطعام في الشتاء، فيكفيه في الصيف أقل ما يتصور، وقد أفاد تحقق تمكن الجوع منه حتى ضره عن فقد أقل ما يتصور لسد الجوع، والتحقق مستفاد من التعبير بفعل الرؤية الذي يستعمل عند قوة الإدراك (رَأَيْتُ)، وهي رؤية قلبية؛ لأن الجوع من المعاني الوجدانية التي لا تدركها العين، وقد تكون الرؤية على الحقيقة، ويكون في إيقاع إسناد الرؤية على الجوع مجاز عقلي علاقته السببية، فالجوع ترى آثاره من الهزال والضعف وعدم القدرة على الحركة، أوقع الإسناد على السبب (الجُوع) لبيان قوته. والتقديم وسيلة تأكيد المعنى الذي أراده (بالصيف ضَرَّنِي)، والأصل أن يقال: (رَأَيْتُ الجُوعَ ضَرَّنِي بالصيف). وقيد التحقق من ضره بالجوع بالكناية عن شدة ضعفه (إذا قمت

يَغْشَانِي ظِلالٌ فأُسْدِفُ)، كنى بتتابع الظلام على العقل عن تمام غياب الوعي والإدراك، يغشى عليه من شدة الضعف. وجعل الظلام المكني بغشيانه عن غياب العقل كالليل في تمكنه (فأُسْدِفُ)، والسَّدْفة والسُّدْفة طائفة من الليل(١)، وهذا التمكن ملحوظ قبل التعبير بلفظ (أسدف)، فالغشيان يتكرر كما تفيد صيغة المضارع، والغشيان من ظلمات عديدة، كما يفيد جمع الكثرة (ظِلالٌ). وفي الأغاني "تَغْشَانِي ظِلالٌ"(٢)، بتأنيث الفعل، وفيها إشارة إلى المراد بالظلال، وهي الظلمات التي تتابعت عليه. وفي جمهرة الأمثال "يغشاني الظلام"(٣)، وهذه الرواية تلتقي برواية الأغاني التي أنث فيها الفعل ليدل على الظلمات، لكن الجمع (ظِلالٌ) مع تنكيره المنبئ عن الكثرة أنسب بالمبالغة التي قصدها الشاعر.

ويلاحظ أنه قدم الحديث عن تصعلكه على الحديث على فقره، وهو ينبه بهذا على سعادته بصحبة الصَّعَاليك، فقدمها حين ذكر أسباب براعته في القتل والنهب. ولم يدخل فقره في الصّعْلَكَة فظهر مفهومها عنده، وهو صحبة الخارجين على أقوامهم، والعلماء يرددون المفهوم بالصّعْلَكَة بين الفقر والخروج على القبائل باحتراف السلب والقتل(٤)، لكن الشاعر هنا يحددها تحديداً دقيقاً، وهذا يساعد على فهم أشعاره في غير هذا الموضع.

---

(١) يراجع لسان العرب: ج١٤٨/٩، ١٤٩ (س د ف).

(٢) الأغاني: ج٢٤٣/٢٠.

(٣) جمهرة الأمثال: ج٥٨/٢.

(٤) يراجع شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، دكتور/عبد الحليم حفني، الهيئة العامة للكتاب (١٩٨٧م): ص١٧ وما بعده، والشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، دكتور/ يوسف خليف، دار المعارف(١٩٥٩م): ص١٩، وما بعده.

(٧) وصف خبرة الخيول

[من الطويل]

إِذَا أَسْهَلَتْ خَبَّتْ، وَإِنْ أَحْزَنتْ مَشَتْ ... ويُغْشَى بِهَا بَيْنَ البُطونِ وتَصْدَفِ[١]

يتكلّم السُّلَيْك عن حسن جودة الخيول وتحملها لمشاق الرحلة، والخبب: العدو في السير. والحزن: ما غلظ من الأرض، والسهل ما كان بخلافه[٢]. يقول: إن الخيول كانت تسرع إذا مرت بأرضٍ سهلةٍ، وتبطيء إذا مرت بأرضٍ غليظةٍ، وهذه كناية عن أصالتها في السفر، فهي تجيد التعامل مع طبيعة الأرض التي تسلكها، وفي نقد الشعر "إِذَا أَسْهَلَتْ جنّتْ"[٣]، والمعنى تستتر من فرط سرعتها، لا تكاد تلحظ، والمادة تدل في أصل الوضع على التستر[٤]. ويلمح في التقييد ثقته بفرسه، استعمل (إذا) مع الفعل الدال على المرور بالأرض السهلة (إِذَا أَسْهَلَتْ) يرمي إلى تحقق ذلك، وأن طبيعة الفرس تحمله على اختيار اليسير الذي لا يشق على الفرس وراكبها، واستعمل (إن) مع الفعل الدال على المرور بالأرض الغليظة (وَإِنْ أَحْزَنتْ) لتقليل احتمال مرورها بتلك الأرض التي تشق على الفرس وراكبها. والمقابلة بين الحالين تهدي إلى أصالة الخيل، وحسن الاعتماد

---

(١) السُّلَيْك بن السُّلَكَة أخباره وشعره: ص٦٠.

(٢) يراجع مقاييس اللغة: ج٢/٥٤ (ح ز ن)، ج٣/١١١ (س هـ ل)، ج٢/١٥٧ (ع د و).

(٣) نقد الشعر، لقدامة بن جعفر، تحقيق: د/ محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان: ص٨٢.

(٤) يراجع مقاييس اللغة: ج١/٤٢١ (ج ن).

عليها في الرحلة، قابل (إذا – أسهلت – خبت) بـ (إنْ – أَحْزَنتْ – مَشَتْ) مقابلة ثلاثة بثلاثة. ويسلك بها بين بطون الأودية، وتقوى على المرور على المرتفعات (تَصْدَفِ)، فـ"الصدفُ كُلُّ شَيْءٍ مُرْتَفِعٍ عَظِيمٍ كالهدَف وَالْحَائِطِ وَالْجَبَلِ"(١)، وصيغة المضارع تثبت لها دوام القوة التي تحملها على ارتقاء المرتفعات والسير فيها كلما مرت بها. وتفسير (تصدف) على أنه موضع(٢) لا تظهر له فائدة؛ لأن الكلام يعم مرورها بكل أرضٍ سهلة، أو حزنة، أودية أو مرتفعات، وهذا أنسب بوصف خبرتها، وتخصيص الموضع يفوت هذه الفائدة. والترقي من الأدنى للأعلى واضح بين الإسهال والخبب والإحزان وغشيان البطون وارتقاء المرتفعات، فكل درجة أقسى من سابقتها، والكلام بجملته كناية عن تحملها للمشاق حين يبعد بها في السفر. وأسند الإسهال والخبب والإحزان والمشي والصدف للخيل، ومراده أنها تشعر بذلك، فيكون منها السرعة كلما كانت الأرض مما يساعد على ذلك، ويكون منها البطء إذا كانت الأرض غليظة، ويكون منها التحفز للقفز إذا كانت الأرض مرتفعة. وبني الفعل الدال على غشيانها للأودية لما لم يسم فاعله، وهذا من عناية الشاعر بالمعنى، ولم لم يفعل ذلك لاحتمل أن تكون الخيل المحدّث عنها أهلية مع احتمال كونها وحشية، فلما بنى الفعل لما لم يسم فاعله تعين أنها أهلية، يقودها فرسان، مع ما في الأسلوب من الدلالة على وعورة الوديان وصعوبة اجتيازها من غير خبرة سابقةٍ تتمثل في الفرسان تعودوا

(١) لسان العرب: ج١٨٧/٩ (ص د ف).

(٢) يراجع المحكم والمحيط الأعظم، لأبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده (ت٤٥٨هـ)، تحقيق: دكتور/ عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى (١٤٢١ هـ – ٢٠٠٠م): ج٢٩١/٨ (ص د ف).

المرور بها، ويضاف إلى ذلك دلالة الأسلوب على كثرة رحلات الفرسان التي تعددت فيها الخيول وتجددت لطول الزمن، ولو أسند غشيان الوديان للخيل لظهر حسن معرفتها، وفات كثرة الرحلات التي أفادها بناء الفعل لما لم يسم فاعله. وفي نقد الشعر "وَتَغْشَى بِهَا بَيْنَ البُطُونِ وتصدف"(١)، خاطب الشاعر نفسه على سبيل التجريد؛ ليثبت لنفسه الخبرة، فهو يتقدم راكبي الخيول ويقودهم إلى وجهتهم. وقيد الغشيان بكونه بالخيل (ويُغْشَى بِهَا)؛ للدلالة على وعورة تلك الأودية، وأنها لا تجتاز إلا على مثل تلك الخيول الفتية. والاستقصاء واضح في كلام الشاعر، حيث جمع بين أنواع الأرض، فمنها سهل، ومنها حزن، ومنها أودية، ومنها مرتفعات، ووراء الاستقصاء الدلالة على تمام الإحاطة بها وتعدد الرحلات للنهب والقتل. والشاعر لم يفصح عن نوع الداواب التي يقطع بها تلك الرحلات، خيلاً كانت أو إبلاً، والذي حدد كونها خيلاً أشعاره في غير هذا الموضع عند الحديث عن انطلاقه للإغارة.

(١) نقد الشعر: ص٨٢.

(٨) الانطلاق للإغارة

[من الوافر]

اخْرِجِ النَّحَّامَ وَاعْجَلْ يَا غُلَامَا ... وَاقْذِفِ السَّرْجَ عَلَيهِ وَاللِّجَامَا
وَاخْبِرِ الفِتْيَانَ: أَنِّي خَائِضٌ ... غَمْرَةَ المَوتِ، فَمَنْ شَاءَ أَقَامَا(١)

يقدم السُّلَيْك صورة لبداية رحلته للإغارة والسرقة، فهو قائد لفتيان يقيمون معه يشاركونه الإغارة بخيل يتحركون عليها، ويشرف على رعاية الخيل وخدمة الفتيان غلمان. تلك صورة لبيئة صعاليكٍ اتخذوا من الخلاء مكاناً للإقامة، وحديث السُّلَيْك هنا يقرب لنا مظهراً للحياة الاجتماعية للصعاليك، لا يحيا الصعلوك وحيداً، لكن له بيئة تضم أمثاله يشاركونه الحياة، فيكون الاجتماع الذي لا يقوى الإنسان على الحياة بدونه، وهذا سرّ الاستمرار.

ونداء الغلام (اخْرِجِ النَّحَّام وَاعْجَلْ يَا غُلَامَا)، يظهر أن السُّلَيْك هو القائد، أمر الغلام في البداية بإخراج فرسه المسمى (النَّحَّام)، وأمره بالعجلة في إخراج الفرس، فدلّ على أنه رصد هدفاً للإغارة مسبقاً، وحدد الموعد الذي سيكون فيه السطو، وأن موعد ذلك السطو قد حان. والتنبيه للإسراع متكرر، حيث أمره بالعجلة عند إخراج الفرس، واستعار القذف لإلقاء السرج واللجام بسرعة؛ لأن القذف في الأصل يكون للحجر ونحوه، شبه إلقاء السرج واللجام على الفرس بسرعة بالقذف بجامع الإسراع في كلٍّ، ثُمَّ استعير القذف للإلقاء، ثُمَّ اشتق من القذف (اقذف) على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية في الفعل. وفي الأغاني (قَرِّبِ النَّحامَ – واطْرَحِ السَّرْجَ)(٢)، وقرب الفرس من

(١) السُّلَيْك بن السُّلَكَة أخباره وشعره: ص٦٥.
(٢) يراجع الأغاني: ج١٩/١٧١.

القائد أمكن في تمام الاستعداد ، وفي لباب الآداب صرح بالقرب، وقيده بكونه منه: "قرّبِ النَّحَّام مني يا غلام"(١)، وطرح السرج على الفرس يناسب السرعة، فالطرح أن يلقي السرج من بعيد. والتعريف بالألف واللام في السرج واللجام للعهد الذهني، دلّ على ذلك تسمية الفرس (النَّحَّام) له فرس معين، ففهم أن للفرس سرجاً خاصًّا به ولجاماً خاصًّا به، وهما معهودان بين السُّلَيْك والغلام، ولولا ذلك لكان في ذكرهما إطناب لا تظهر له فائدة. ونداء الغلام مؤخراً بعد الأمر (اخْرِجِ النَّحَّام وَاعْجَلْ يَا غُلَامَا) فيه مع التنبيه الإحساس بالترفع والقيادة؛ لأن السُّلَيْك رقيق، وكلمة غلام تناسبه، فلما صدرت منه لخادمه فهم منها استعلاء القائد على من يقودهم لا استعلاء السيد على من يملكهم، وأداة نداء البعيد (يَا) تبدي هذا التفاوت الرتبي بين القائد ومن يخدمونه. والمنادى (غُلَامَا) نكرة غير مقصودة بدليل النصب، وهذا يهدي إلى كثرة أولئك الخدم في بيئة الصَّعَاليك، ولو كان غلاماً معيناً لرفع في النداء فقيل: يا غلامُ. وهذا ملمح مهم تكشفه الأساليب. وتقديم متعلق القذف (وَاقْذِفِ السَّرْجَ عَلَيهِ وَاللِّجَامَا) احتراز عن معنى يضر بغرض الشاعر؛ لأن أصل الكلام قبل التقديم: وَاقْذِفِ السَّرْجَ وَاللِّجَامَا عَلَيهِ، ولو جاء الكلام على هذا لاحتمل أن يكون الضمير في (عليه) للسرج، فيكون المراد إلقاء اللجام على السرج، وهذا يفهم منه التروي والانتظار، وهو يناقض غرض الشاعر ويصطدم بالقرائن اللفظية الدالة على السرعة كالأمر بالتعجيل والقذف.

(١) لباب الآداب، أسامة بن منقذ، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مكتبة السنة، القاهر، الطبعة الثانية (١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م): ص١٨٢.

وبعد انتهاء الغلام من إخراج (النحام) ووضع سرجه ولجامه عليه أن يتوجه لإخبار الفتيان بأن القائد يدعوهم للإغارة (وَاخْبِرِ الفِتْيَانَ: أَنِّي خَائِضٌ غَمْرَةَ المَوتِ)، وهنا يظهر سبب نجاح الرحلة، فالقائد لم يحدثهم عن موضع الإغارة، ولم يحدد موعداً يترقبونه، بل يفجأهم فيدعوهم بعد إخراج فرسه وتمام استعداده للرحلة، وينقاد الفتيان له، فيكون النجاح. وكنى عن شدة المعركة التي يخوضها بـ(غَمْرَةَ المَوتِ)، وتعريف الموت بالألف واللام للاستغراق، كأن تلك المعركة المحدّث عنها جمعت كلّ شدةٍ تتصور، وجمعت كلّ أسباب الموت، والنجاة مع هذا الاستغراق يحيط بها الشّكّ، وهذا سرّ تخييره لهم بعد ذلك (فَمَنْ شَاءَ أَقَامَا)، أظهر بالشرط أنه يلتمس العذر لمن تخلف عن المعركة، وفي الأغاني "أبلغ الفِتْيانَ أنّي خائِضٌ غمْرَةَ الضّرْب"(١)، وفي لباب الآداب "أعلمِ الفِتْيَانَ"(٢)، والفرق بين الإخبار والإعلام والإبلاغ أن الإخبار إظهار الخبر تمكن المخبر به من قلب المخاطب أو لم يتمكن، أما الإعلام فيكون فيه مبالغة في التوصيل تمكن المخبر به من قلب المخاطب، وأما الإبلاغ: فهو إيصال فيه بيان وإفهام حتى يتمكن من العقل(٣)، فالإخبار فيه ترفع، والإعلام فيه الحرص على تمكن الأمر من قلب المخاطب، والإبلاغ في حرص على تمكن قلب المخاطب مع الدلالة على الوسيلة التي يكون بها ذلك، وهي رعاية الألفاظ والمعاني التي يكون بها نقل الأمر. ورواية الإخبار معها الواو (وَاخْبِرِ الفِتْيَانَ)، وهو إنشاء طلبي ينتظم مع ما قبله (اخْرِجِ النَّحَّام – وَاعْجَلْ يَا غُلَامَا – وَاقْذِفِ السَّرْجَ عَلَيهِ وَاللِّجَامَا)، وصل بينها للتوسط بين الكمالين مع عدم وجود المانع؛ لاتفاق الجمل في الإنشائيّة، أما روايتا الإبلاغ والإعلام

(١) الأغاني: ج١٩/١٧١.

(٢) لباب الآداب: ص١٨٢.

(٣) يراجع الفروق اللغوية: ص٥٠، ٧٧.

بالفصل عن الأوامر قبلهما، فهما دليل على إيجاز بحذف جملٍ قبلها، كأن الغلام بعد أن عجل بإخراج النحّام ووضع سرجه عليه ووضع اللجام سأل السُّلَيْك، (أأبلغ الفتيان؟/أأعلم الفتيان؟) فأجابه السُّلَيْك: نعم، (أبلغ الفِتْيانَ أنّي خائِضٌ غمْرَةَ الضّرْب/ أعلم الفِتْيانَ أنّي خائِضٌ غمْرَةَ الموتِ)، فصل سؤال الغلام عن كلام السُّلَيْك السابق عليه لكمال الانقطاع؛ لاختلاف الجملتين في الإسناد، فالكلام الأول صدر من السُّلَيْك للغلام (اخْرِجِ النَّحَّام وَاعْجَلْ يَا غُلَامَا وَاقْذِفِ السَّرْجَ عَلَيهِ وَاللِّجَامَا) والسؤال صدر من الغلام للسليك (أأبلغ الفتيان؟)، وفصل كذلك سؤال الغلام (أأبلغ الفتيان؟ / أأعلم الفتيان؟) عن الجواب (نعم) لكمال الانقطاع بلا إيهام؛ لاختلاف الجملتين خبراً وإنشاءً. وفصل الجواب (نعم) عن الأمر؛ لكمال الانقطاع بلا إيهام؛ لاختلاف الكلامين في الخبريّة والإنشائيّة. أما رواية (غمْرَةَ الضّرْب)، فهي تصرح باستعداد العدوّ للقتال، فله سلاح يضرب به، وقوة يدافع بها عن نفسه، لكن الكناية عن شدة المعركة بغمرة الموت أقوى في المبالغة. ولم يقابل شرط من أراد التخلف بشرطٍ لمن عزموا على الإقدام بأن يقول: فَمَنْ شَاءَ التخلف عن المعركة حرصاً على حياته أَقَامَ، ومن شاء خوض المعركة نهض لها؛ ليدل على قوتها، والمقام لا يناسبه الإطناب، لكن معرفة الفتيان بقائدهم توجه كلامه للتحفيز، وقد نبه على قوتهم في كلامه للغلام (وَاخْبِرِ الفِتْيَانَ)، والإيجاز بحذف فعل الشرط يحكي ثقته بهم، وأنه لن يتخلف أحد منهم، لأن أصل الكلام بعد تقدير المحذوف: فَمَنْ شَاءَ الإقامة خوفاً على حياته أَقَامَ. وأكّد عزمه على القتال بالمبالغة في الإقدام التي أفادها اسم الفاعل (خَائِضٌ)، والتوكيد بـ(أن) وإسمية الجملة يعالج ما يقع في أنفسهم من دهشةٍ حين إخبارهم بدعوته، يظهرون في هيئة المتردد.

(٩) كيفية معرفة الغنائم

[من الطويل]

بِحَمْدِ الإِلَهِ وَامْرِئٍ هُوَ دَلَّنِي ... حَوَيْتُ النِّهَابَ مِنْ قَضِيْبٍ وَتَحْتَمَا(١)

يكشف السُّلَيْك بهذا البيت الطريقة التي يحوز بها النهاب، حيث يرسل فتيان أقوياء للبحث في كلّ مكانٍ، ثُمَّ يأتونه بالأخبار إن وجدوا ما يستحق النهب.

وحمد الإله يظهر رضا النفس بالسرقة والنهب والإغارة، غلب عليها حب المخالفة حتى توهمت أنه حق، وهي تحمد الله عليه على أنه رزق يسوقه الله لها، وهذا أثر التمادي في الظلم والجور، مع اطراده وكثرته في العصر الجاهلي.

والإغارة لا تكون على الجار؛ لأنه قوة لجاره ودرع حماية، يمنع الأعداء من الوصول لمن يجاوره، ويقف معه للدفاع إذا استنصر به، فلابد أن تكون الإغارة بعيداً، وهو يتطلب الإحاطة بما يستحق السير والانتقال للنهب، وسبيل ذلك البحث والتنقيب، ولا يقوى عليه إلا فتيان أقوياء، يتحملون الانتقال ويصبرون على البحث لرصد الأهداف ومراقبتها، والشاعر يختصر كل هذا، ويشير إليه بمروءة الفتى الذي دله على مواطن النهاب (وامْرِئٍ هُوَ دَلَّنِي)، والمروءة: الرجولة، فهي تدل على القوة والتحمل(٢). وعطفها على حمد الله يظهر أن المرء المشار إليه في موضع الإعزاز والشكر، وأن النفس تستشرف إليه وتنتظره، وتحمل له الشكر؛ لأنّ بشارته تفتح أسباب النعمة على الصَّعَاليك الذين صنعوا لأنفسهم بيئة بعيدة عن

---

(١) السُّلَيْك بن السُّلَكَة أخباره وشعره: ص٦٥.

(٢) يراجع لسان العرب: ج١/١٥٤ (م ر أ).

الناس، وهم يحتاجون للمال والخير حتى تستمر الحياة. والتنكير في (امْرِئٍ) يشير إلى كثرة الفتيان الباحثين عن النهاب، ووصف النكرة بالجملة الاسمية الدالة على الثبات (هُوَ دَلَّنِي) يشي بثقة السُّلَيْك في أولئك الفتيان، وأنه جربهم قبل ذلك.

ولم يتكلّم على ما يتبع الإحاطة بموضع النهب من الاستعداد والسير والمراقبة والقتال إعلاماً بتمكنه ويسر كلّ ذلك عليه، وأن الذي يعنيه هو تحديد الموضع الذي يسير إليه، وأما الرحلة بتمامها بعد ذلك فهو يضمن لها النجاح والتوفيق، وقد دعاه هذا للانتقال من دلالة المرء على موضع النهب إلى الاستحواذ على النهاب (حَوَيْتُ النِّهابَ)، وقد أجاد حين علق دلالة المرء على النهاب بالاستحواذ، مع تأخير الاستحواذ؛ ليظهر يسره عليه. وتحديد مكاني النهب له مدخل في إظهار تمكنه حين طوى الرحلة، وله مدخل – أيضاً – بشكر المرء الدال على النهب، فقضيب وتحتم بلدان باليمن[1]؛ فقد دل بهما على بعد المسافة الملحوظ من الحديث عن المروءة (وامْرِئٍ هُوَ دَلَّنِي). والواو بين قضيب وتحتم هي واو المعية التي تفيد قوته، فهو يحوز النهاب من قضيب وتحتم في وقت واحدٍ؛ فالمعنى: حَوَيْتُ النِّهابَ مِنْ قَضِيبٍ مع تَحْتَم؛ ولهذا آثر التعبير بالمادة حوى التي تدل على الجمع[2]، ولو قال حزت لتم أصل المعنى، وهذا دليل التمكن والإجادة، وفي معجم ما استعجم "مِنْ قَضِيبَ وتَحْتَما"[3] بمنع صرف الاسمين معاً.

(١) يراجع معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع: ج١/٢٧٥، ج٢/١٣١، ج٣/٣١٨.

(٢) يراجع مقاييس اللغة: ج٢/١١٢ (ح و ى).

(٣) معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع: ج١/٢٧٥، ج٢/١٣١، ج٣/٣١٨.

ثالثاً: حديث السُّلَيْك عن المرأة

(١) الغزل بنشيبة

[من الطويل]

أَلَمَّ خَيَالٌ مِنْ نُشَيْبَةَ بِالرَّكْبِ ... وَهُنَّ عِجَالٌ عَنْ نُيَالٍ وَعَنْ نَقْبِ[١]

هذا لون من الدّلالة على جمال المرأة، يخبر عن حال المحيطين لها، تعلقت أفئدتهم بها، ويلتمسون وصلها. يقول: إن نشيبة تملكت محبتها قلوب من يعرفونها، فبينها وبينهم حبال خفيّة، أشعرتهم بالحنين لها، فحملهم هذا على الإسراع إلى موطنها، يتعجلون الرحيل من (نيال) و (نقب) بالبحرين[٢]. وقد أجاد في تسمية المرأة (نشيبة) مع تصغير الاسم، لأن النشبة: الَّذِي ينشب فِي الشَّيْء فَلَا ينْحل عَنهُ، ونشيبة: علم جنسٍ للذئاب[٣]، تنشب أظفارها في فريستها فلا تنحل منها، وهذا المعنى محقق في المرأة التي تملكت محبتها قلوب من يعرفونها، ولا خلاص لهم. والتصغير يظهر استحسان المحبين لتمكنها منهم. وفي لسان العرب "أَلَمَّ خَيالٌ مِنْ أُميَّة بالرَّكْبِ"[٤]، وفي المحكم لابن سيده "أَلَمَّ خَيَالٌ مِن أُمَيْمَةَ بالرَّكْبِ"[٥]. وأميمة تصغير أمامة، أراد بأميمة أن القلوب تؤمها، بمعنى تقصدها. والشاعر يرمي بخبره إلى تملكها له، كما تملكت غيره.

هام الفكر فيها فتواردت عليه صور تمثلت فيها نشيبة في أحوال مختلفة مع محبيها، كلّ يتصورها على حسب ما يحبّه منها، وهي صور

---

(١) السُّلَيْك بن السُّلَكَة أخباره وشعره: ص٤٩.

(٢) يراجع معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع: ج٤/١٦٣، ١٦٧.

(٣) يراجع تاج العروس من جواهر القاموس: ج٤/٢٦٧، ٢٦٨ (ن ش ب).

(٤) لسان العرب: ج١١/٦٨٦ (ن ي ل).

(٥) المحكم والمحيط الأعظم: ج١٠/٤١٨ (ن ي ل).

تكاثرت على النفس كما أفاد التنكير (خَيَالٌ)، وتلك الصور لا تتحقق مركبةً في الواقع، لكن عناصر الصورة على انفرادها موجودة متحققة، وهذا هو الخيال، وهو أنسب في الدلالة على حسنها من الوهم الذي يتمثل في صور غير حقيقية مفردةً أو مركبة. والإسناد (أَلَمَّ خَيَالٌ مِنْ نُشَيْبَةَ بِالرَّكْبِ) يجعل للخيال سطوة، ومعلوم أن الخيال ثمرة الفكر، والشاعر يلمح إلى طول انشغال الفكر بنشيبة حتى صنع الفكر صوراً تملكته، فتحول الخيال المسبّب عن حركة الفكر إلى شيءٍ يسيطر على الرّكب ويحملهم على سرعة الانصراف من نيال ونقب لإسعاف الفؤاد بنظرةٍ من نشيبة. والرّكب هم القوم الذين يرتحلون على الركائب، وهي الإبل، فالرّكب يدل على القوم وركائبهم، وهنا يظهر صحّة عود ضمير الإبل (وَهُنَّ عِجَالٌ) على لفظ (الرّكب). أسندت العجلة للمفعول (الركائب) على طريقة المجاز العقلي بعلاقة المفعولية، مبالغة في إظهار عجلة القوم الذين ألمّ بهم الخيال فتجاوزتهم العجلة إلى الرّكائب، والمجاز يظهر أن الرّكائب تشارك القوم في الشّوق لنشيبة. وذكر المكان له فضل في إظهار المعنى، وإلا ما قصده الشاعر (وَهُنَّ عِجَالٌ عَنْ نُيَالٍ وَعَنْ نَقْبِ)، وفي لسان العرب: "وهُنَّ عِجالٌ من نُبَاك وَمن نَقْبِ"(١)، ويبدو أن الموضعين اشتهرا بمظاهر الراحة والمتعة التي تهواها النفوس، والعدول عنهما مع ما فيهما من الراحة والترف والمتعة شوقاً إلى نشيبة يظهر حسن المرأة ونعمة الاتصال بها التي ألهبت القوم وحملتهم على سرعة الانصراف إيثاراً لجمال المرأة الذي فاق كل حسنٍ وقفوا عليه عن اللهو واللذة في موضعين ترتاح إليهما النفوس.

(١) لسان العرب: ج١/٧٧٠ (ن ق ب).

(٢) هزؤ أمامة من هيئته

[من الكامل]

هَزِئَتْ أُمَامَةُ أَنْ رَأَتْ بِي رِقّةً ... وَفَماً بِهِ فَقَمٌ وَجِلْدٌ أَسْوَدُ

أُعْطِي إِذَا النَّفْسُ الشَّعَاعُ تَطَلَّعَتْ ... مَالِيْ وَأَطْعَنُ وَالفَرَائِصُ تُرْعَدُ(١)

أراد الشاعر وصف نفسه بالكرم، فتنبه لظاهر حاله من كونه رقيقاً أسوداً قبيح المنظر، فجعل من التهوين من هذه الأوصاف مدخلاً حتى يتلقى السامع كلامه عن الكرم بالقبول.

وقد أجاد حين أجرى الهزء على لسان امرأة، سماها أمامة؛ لأن ظاهر الرجل من الحسن أو القبح يظهر أثره عند النساء، يهتم الرجل لقبوله عند النساء، ولا يلتفت لهذا عند الرجال، وتسميتها أمامة تقتضب ما عليه حالها من الجمال وطيب أنفس الرجال لها، تؤمها كل نفسٍ بمعنى تقصدها، والسُّلَيْك يلمح إلى أن نفسه قصدتها كحال بقية الرّجال، وأنها علمت ذلك منه، فكان هزؤها من رقّه، فهو لا يملك أمر نفسه، فكيف يملكها؟ وهزئت من هيئته من السواد والقبح، كيف تكون له وهي على درجةٍ من الجمال أمّها كلّ الرّجال، أهلها لإسناد الهزء لها وحدها (هَزِئَتْ أمامةُ)؟ مع أن تفصيل الهزء بعد ذلك يجعل ما لحظته أمامة من صفات السُّلَيْك مسلم به ثابت لدى كلّ نفسٍ، لكنه لا يعتدّ به إلا عند أمامة، فهزؤها هو الذي آلمه، ولم يؤلمه هزؤ غيرها.

وهزؤ أمامة فيه إجمال يفصله صفات السُّلَيْك (أن رأتْ بي رقّةً وفماً به فَقَمٌ وجلدٌ أسودُ)، جعل الصفات في حيز الرؤية لينبه إلى تحققها؛ لأن الرؤية يعبر بها عند قوة الإدراك ووضوح المرئي للعين أو القلب. وقدم

---

(١) السُّلَيْك بن السُّلَكَة أخباره وشعره: ص٥٠.

العيب المعنوي، وهو الرق على عيبي جسده الظاهرين من السواد والفقم؛ لأن الرق يضيع معه صفات الحسن وإن تعددت، لا يلتفت لجمال الظاهر مع رق صاحبه، فكيف والسُّلَيْك قبيح الهيئة؟ وهنا يتضح أن إلحاق عيبي الظاهر بالرق تدرج يزيد من تهوين أمر السُّلَيْك، ويضاعف التعجيب والسخرية منه حين حدثته نفسه إلى قصد أمامة، وهي قبلة المحبين ومحط أنظار طالبي الجمال. وتأنيث الرق (رقّةً) إلحاح من الشاعر على تهوين أمر نفسه، فالرق ضعف، وتأنيثه مبالغة في تهوينه؛ فالقوة من صفات الذكور، والضعف والرقة من صفات الإناث، ويستعان بتذكير المؤنث لإبراز ما عليه المؤنث من قوة كشدة الصيحة التي أخذت قوم سيدنا شعيب في قول الله تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾[هود:٦٧]، أراد القرآن أن يظهر فرط الشدة والقوة التي كانت عليها الصيحة – وهي مؤنثة – فذكر الفعل معها ليكون دليلاً على تلك الشدة؛ ويستعان بالتأنيث لإظهار الضعف والوهن حين يصيب المذكر، كتأنيث الفعل مع قوم نوحٍ للدلالة على ضعف عقولهم في قول الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾[القمر:٩]، أراد القرآن توهين قولهم في رسولهم بأنه مجنون، فأظهر بتأنيث الفعل ضعف عقولهم التي كان بها الحكم على هذا الرسول الكريم.

وعطف رؤية الفم على الرق (أن رأتْ بي رقّةً وفماً به فَقَمٌ) يكشف معنى نفسي عند رؤية المرأة للرجل، فإنها توجه عينها في أوّل الأمر إلى فمه؛ لأن الفم أول ما يكون من الرجل للمرأة عند اللقاء، وهي تُسرّ إن أيقنت صحته، وتساء إن كان به عيب، وقد ساء أمامة فم الشاعر حين أدركت ما به من فقم، قال ابن منظور: "الفَقَمُ فِي الْفَمِ: أَنْ تَدْخُلَ الأَسنان الْعُلْيَا إِلَى الْفَمِ، وَقِيلَ: الفَقَم اخْتِلَافُهُ، وَهُوَ أَنْ يَخْرُجَ أَسْفَلُ اللَّحْي وَيَدْخُلَ أَعْلَاهُ، فَقِمَ يَفْقَم

فَقَماً وَهُوَ أَفْقَم، ثُمَّ كَثُرَ حَتَّى صَارَ كلُّ مُعْوَجٍّ أَفقم، وَقِيلَ: الفَقَم فِي الفَم أَنْ تَتَقَدَّمَ الثَّنَايَا السُّفْلَى فَلَا تَقَعُ عَلَيْهَا الْعُلْيَا إِذَا ضَمَّ الرَّجُلُ فَاهُ. وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو: الفَقَمُ أَنْ يَطُولَ اللَّحْيُ الأَسفل ويَقْصُر الأَعلى"(١). وكان يكفي الشاعر أن يعطف الفقم على الرق فيقول: أن رأتْ بي رقّةً وفَقَمًا؛ لأن الفقم من عيوب الفم، ويبدو أنه يظهر فرط استيائها من ذلك العيب، فصرّح به وبالعضو الجسدي الخاصّ به لتوكيد استيائها ونفرتها منه، وتقديم متعلق الفقم عليه واضح في إرادة التوكيد (به فَقَمٌ)، وكان الأصل في هذه الجملة الوصفية أن يقول: (فَقَمٌ به). وقد استأنف لبيان سواده بعد بيان الفقم (وجلدٌ أسودُ)، وحسن صنيع الشاعر واضح؛ لأن موقع هذه الجملة في البيت يجعلها محلًّا للاحتمال، فيحتمل – عند أول النظر – عطفها على الجملة الوصفية (به فَقَمٌ)، على أن يكون مراد الشاعر أن الفم به فقم وجلد أسود، ويحتمل مع ذلك – وهو الأقرب للصحة – أن تكون الجملة مستأنفة لبيان سواد جسد السُّلَيْك، فيكون تقدير الكلام معها: وجلد أسود رأته؛ لأنه لا يعقل أن يكون ما ساء أمامة سواد فم السُّلَيْك وحده دون أن يسوءها سواد عموم جسده، وهو ممن تميزوا به حتى قيل عنه: إنه أحد أغربة العرب(٢)، لكن يبقى صنيع الشاعر مستحسنًا؛ لأنه أظهر بهذا الاستعمال أن سواد جسد السُّلَيْك ساء المرأة، وأن سواد فمه – خاصة – كان أشد على نفسها؛ لأنه أول أسباب إدراك اللذة بين الرجل والمرأة.

ونلحظ اعتناء الشاعر باللغة حيث بنى الكلام على حدثٍ وتعليلٍ، فالحدث يتمثل في هزؤ أمامة (هَزِئَتْ أمامةُ)، والتعليل يتمثل في صفات

(١) لسان العرب: ج١٢/٤٥٧ (ف ق م).

(٢) يراجع الشعر والشعراء لابن قتيبة: ج١/٢٩٧.

السُّلَيْك (أن رأتْ بي رقّةً وفماً به فَقَمٌ وجلدٌ أسودُ)، لكن المتلقي يدرك بعد تمام الكلام أن وراء الحدث والتعليل إجمال وتفصيل، ولا يتأتى هذا إلا لذوي الطبع.

وقد انتقل الشاعر من بيان عيبه إلى شيء من شمائل تميز بها قد تشفع له في ظاهره الذي يسوء الناظر، فكنى عن كرمه بـ(أُعطي إذا النَّفسُ الشَّعاعُ تطلَّعتْ مالي)، وكنى عن شجاعته في البأس بـ(وأطعنُ والفرائصُ تُرعدُ). ففي الكناية عن كرمه يسلط العطاء على عموم ماله، لا يبق منه شيئًا، ولم يتعدى العطاء لمفعولٍ ثانٍ لإرادة التعميم، يصح أن يقال: أعطي الصديق مالي، أو أعطي الأهل مالي، ونحو ذلك، لكنه لم يأت للعطاء بمفعولٍ ثانٍ؛ ليدخل تحت عطائه كل من يمكن أن يصرف له العطاء. وقيد العطاء بكونه في أوقات الشدة التي يذهل فيها العقل ويتفرق فيها الفكر من كثرة الهموم[1] من أثر الحاجة (إذا النَّفسُ الشَّعاعُ تطلَّعتْ). واعترض بالقيد بين الفعل والمفعول للتأكيد على كونه ممن تعودوا البذل والجود؛ لأن العطاء في أوقات الشدائد لا يتأتى إلا ممن طبعوا عليه، ولو جاء الكلام على الأصل لقيل: أُعطي مالي إذا النَّفسُ الشَّعاعُ تطلَّعتْ. والجملة فعلية في زمن المضارع، وهذا أمكن في بيان الكرم الذي يتكرر مع كونه في الحال والاستقبال. وفي الكناية عن الشجاعة (وأطعنُ والفرائصُ تُرعدُ)، يعبر بالطعن، والطعن يكون بخنجرٍ ونحوه مما يفيد تلاقي المتقاتلين وقربهما، وهذا أقوى في الشجاعة، ومعلوم أن من يطعن بخنجرٍ أشد شجاعةً ممن يقاتل بالسيف، والذي يقاتل بالسيف أقوى شجاعةً ممن يرمي بالحربة أو الرمح، وأن من يرمي بالحربة أو الرمح أقوى شجاعةً ممن يرمي بالنبال،

(١) يراجع لسان العرب: ج١٨١/٨ (ش ع ع).

كلما قلت المسافة بين المتقاتلين قويت الشجاعة، وكلما زادت المسافة بينهما قلت تلك الشجاعة. ولم يقيد الطعن بمفعولٍ مع أنه يتعدى لمفعولين، فحصل التعميم – أولاً – في عموم السلاح الذي يكون به الطعن، وحصل التعميم – ثانياً – في عموم من يقاتل: راكباً أو راجلاً، واحداً أو أكثر، وقيد الطعن الذي أفاد قربه ممن يقاتله بكونه في أوقات الشدة التي يتهيب فيها المقاتلون من القتال (وأطعنُ والفرائصُ تُرعدُ). وحرص على إظهار شيءٍ من دلائل الخوف على المقاتلين، وهي الرجفة التي تصيب الفرائص، "والفَرِيصةُ: لَحْمَةٌ عِنْدَ نُغْضِ الْكَتِفِ فِي وَسَطِ الْجَنْبِ عِنْدَ مَنْبِض القَلْب، وَهُمَا فَرِيصَتان تَرْتَعِدان عِنْدَ الْفَزَعِ"(١). وتهيب المقاتلين ينبئ عن إحجامهم، والنأي عن ساحة القتال خوفاً على أنفسهم، وهنا يظهر الطباق الخفي بين الطعن المنبئ عن القرب والمواجهة ورعد الفرائص المنبئ عن البعد والفرار عن ساحة القتال، وقد أفاد السُّلَيْك (ت١٧ق هـ) المعنى من قول طَرَفَة (ت٦٠ق هـ):

وَيَومٍ حَبَسْتُ النَّفْسَ عِنْدَ عِرَاكِـهِ ... حِفَاظـاً عَلَى عَوْرَاتِهِ وَالتَّهَدُّدِ

عَلَى مَوْطِنٍ يَخْشَى الفَتَى عِنْدَهُ الرَّدَى ... مَتَى تَعْتَرِكْ فِيهِ الفَرائِصُ تُرْعَدِ(٢)

وقول السُّلَيْك مقدم على قول طرفة؛ لأن السُّلَيْك أفاد المعنى بشطر بيت، أما طرفة فإنه أفاد المعنى ببيتين.

وفَصَلَ إخبارَه عن هزءِ أمامة من رقه وفقمه وسواده عن إخبارِهِ عن كرمه وشجاعته، مع أنهما خبران؛ دليلاً على إيجازٍ بحذف أسلوب نهيٍ قبل

---

(١) يراجع لسان العرب:ج٧/٦٤ (ف ر ص).

(٢) البيتان من الطويل لطرفة بن العبد في ديوانه، تحقيق: مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الثالثة (١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م): ص٢٩.

الإخبار عن كرمه وشجاعته، كأنه قال بعد بيان هزئها من رقه وفقمه وسواده: لا تهزئي. ففصل بين الهزء والنهي لكمال الانقطاع؛ لاختلاف الجملتين خبراً وإنشاءً، فجملة الهزء خبريّة لفظاً ومعنى، وجملة النهي المقدرة إنشائيّة لفظاً ومعنى. ثُمَّ فصلت جملة النهي المقدرة عن بيان الكرم والشجاعة؛ لشبه كمال الاتصال؛ لأن النهي المقدر يستلزم سؤالاً عن علة النهي، كأنها قالت له: لماذا تنهاني عن الهزء بك؟ فكان الجواب:

أُعْطِي إِذَا النَّفْسُ الشَّعَاعُ تَطَلَّعَتْ ... مَالِي وَأَطْعَنُ وَالفَرَائِصُ تُرْعَدُ

وَوَصَلَ بين الكناية عن كرمه والكناية عن شجاعته؛ للتوسط بين الكمالين مع عدم وجود المانع؛ لاتفاق الجملتين في الخبريّة لفظاً ومعنى، وحسَّن الوصل اتحاد الجملتين في المسند إليه، والاتفاق في الخبريّة والفعلية ونوع الفعل والتقييد. والبيت بتمامه دليل كرم النفس وإبائها، طابق الشاعر في شطريه بين ما يفيد النفع، وهو العطاء (أُعْطِي)، وما يفيد الضر، وهو الطعن (أَطْعَنُ)، فجمع بين الرحمة التي دلّ عليها نفع المحتاجين طالبي العطاء، والقوة التي دل عليها الإقدام على ساحات البأس لردّ المعتدين في أوقاتٍ يتهيب فيها الفرسان على أنفسهم من الموت.

(٣) وصف فم محبوبته

[من الطويل]

وَتَبْسِمُ عَنْ أَلْمَى اللَّثَاتِ مُفَلَّجٍ ... خَلِيْقِ الثَّنَايَا بِالْعُذُوْبَةِ وَالبَرْدِ[١]

يخبر الشاعر عن جمال فم محبوبته وأثره على نفسه، فحذف الفم ووصفه بثلاث صفات أبانت عنه: تناهي حمرة اللثة القريب من الاسمرار (ألمى اللثاث)[٢]، وتباعُدُ ما بين الثنايا والرباعيات (مُفَلَّج...الثنايا)[٣]، وطيب النكهة (خليق...بالعذُوبةِ والبَرْدِ)، ولو جاء الكلام على الأصل لقيل: وتبسم عن ثغر ألمى اللثات، مُفَلَّج...الثنايا، خليق...بالعذُوبةِ والبَرْدِ، فاكتفى بالنعت عن المنعوت إيجازاً. والترتيب بين ألفاظ الوصفين الأخيرين دليل اهتمام الشاعر بالإخبار عنهما معاً، فجاء بهما على طريقة اللف والنشر (مُفَلَّجٍ خليق الثنايا بالعذُوبةِ والبَرْدِ)؛ لأن الفلج وصف للثنايا، والخليق يناسبه العذوبة والبرد. ووصل بين الفلج والعذوبة؛ لأنه أراد أنهما اجتمعا في محبوبته في وقتٍ واحدٍ، هو وقت قربه منها وهنائه بريقها العذب. وقدّم الفلج على العذوبة؛ لأن الفلج يدرك بالعين قبل أن يكون القرب وإدراك عذوبة الفم. وجعل اللمى والفلج وطيب الريق يدرك عند أول بسمتها (وَتَبْسِمُ عنْ...). وجعل عذوبة الفم في أصل الخلقة لا تغيّره عوامل الطبيعة (خليق...بالعذُوبةِ والبَرْدِ)، مع الدّلالة على ثبات اللمى والعذوبة من خلال الصفة المشبهة الدّالة على الدّوام والثبوت (ألمَى – خليق) وسرّ الجمع بين حسن الهيئة وطيب النكهة أن هذه الحال تكون عند تقبيل المرأة؛ فلا يعلم

---

(١) السُّلَيْك بن السُّلَكَة أخباره وشعره: ص٥١.

(٢) يراجع لسان العرب: ج١٥/٢٥٨ (ل م ا).

(٣) يراجع الصحاح: ج١/٣٣٥ (ف ل ج).

طيب مذاق الريق إلا حال النهل منه، وقد صرّح الأخطل بهذا المعنى المطويّ في وصف ثغر أُمِّ بِشْرٍ:

وَتَبْسِمُ عَنْ أَلْمَى شَتِيْتٍ نَبَاتُهُ ... لَذِيذٍ إِذَا جَادَتْ بِهِ وَاضِحُ الثغرِ(١)

قيد اللذة الحاصلة من الفم بكونها حال جودها بالفم لعاشقها (لذيذٍ إذا جادَتْ بِهِ)، بعد أن كنى عن فلج الثنايا بكون الفم ذا نباتٍ شتيت (شَتِيْتٍ نَبَاتُهُ)، وأطلق اللمى فدل على سمرة الشفاة واللثة معاً.

ووراء الإخبار عن حسن الشكل وطيب النكهة في بيت السُّلَيْك الإيماء إلى ميلها ورضاها به وحسن استقباله، ولهذا آثر التعبير بالجملة الفعلية (وَتَبْسِمُ عنْ ألمى اللّثاتِ...) التي أفادت أن هذه الحال منها تتجدد كلما كان بينهما لقاء. والمراد بالبرد: الريق، يطفئ حرّ الشّوق، وعطفه على القيد بالعذوبة يفيد أن العذوبة لا تحصل من الريق وحدة، بل تحصل من كلّ أجزاء الفم من الأسنان واللسان واللثة والشفاه. وطيب المذاق ينبئ عن طيب العرف، وطيب العرف يحتاج لقرائن تهدي إلى طيب المذاق.

وذكر أبو هلال العسكري أن بشاراً أخذ المعنى من السُّلَيْك فقال:

يَا أَطْيَبَ النَّاسِ رِيْقاً غَيْرَ مُخْتَبِرٍ ... إِلاَّ شَهادَةَ أَطْرَافِ المَسَاوِيكِ(٢)

وواضح أنه لم يأخذ المعنى بتمامه، لكنه أخذ منه عذوبة الريق وحدها، وقرن بها ما ينبئ عن طيب العرف، وهو شهادة أطراف المساويك، يدرك من رائحتها طيب رائحة الفم، وأما تناهي حمرة الشفاه، وطيب الفم بتمامه وفلج الثنايا، فلا يوجد في بيت بشّار ما يدل عليه. وتنبغي الإشارة

---

(١) البيت من الطويل للأخطل في ديوانه، تحقيق: مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، لبنان – بيروت، الطبعة الثانية (١٤١٤هـ – ١٩٩٤م): ص١٥٣.

(٢) البيت من البسيط لبشار بن برد في ديوانه: ص١٧٣.

إلى أن أصل المعنى قديم سبق به طرفة بن العبد (ت٦٠ق هـ) في معلقته، قال:

وَتَبْسِمُ عَنْ أَلْمَى كَأَنَّ مُنَوّراً ... تَخَلّلَ حُرَّ الرَّمْلِ دِعْصٌ لَهُ نَدِي

سَقَتْهُ إِيَاةُ الشَّمْسِ إِلَّا لِثَاتِهُ ... أُسِفَ وَلَمْ تَكْدِمْ عَلَيهِ بِإِثْمِدِ[١]

تكلّم طرفة عن حسن هيئة الفم، يقول: وتبسم الحبيبة عن ثغر تناهت حمرة شفتيه، كأنه أقحوان خرج نَوره في كثيب رملٍ ندٍ سقط عليه شعاع الشمس بعد أن ذر الإثمد على اللثة[٢]. فأخذه السُّلَيْك وبنى عليه.

(١) البيتان من الطويل لطرفة بن العبد في ديوانه: ص٢٠.

(٢) يراجع شرح المعلقات السبع، لأبي عبد الله الحسين بن أحمد الزوزني، الدار العالمية للنشر، بيروت – لبنان (١٩٩٣م): ص٤٩.

(٤) إغاثة فكيهة له

[من الوافر]

لَعَمْرُ أَبِيكَ وَالأَنبَاءُ تَنْمِي ... لَنِعْمَ الجَارُ أُخْتُ بَنِي عُوَارَا
مِنَ الخَفِرَاتِ لَمْ تَفْضَحْ أَبَاهَا ... وَلَمْ تَرْفَعْ لِإِخْوَتِهَا شَنَارَا
كَأَنَّ مَجَامِعَ الأَرْدَافِ مِنْهَا ... نَقَى دَرَجَتْ عَلَيهِ الرِّيحُ هَارَا
يَعَافُ وِصَالَ ذَاتِ البَذْلِ قَلْبِي ... وَيَتَّبِعِ المُمَنَّعَةَ النَّوَارَا
وَمَا عَجَزَتْ فُكَيْهَةَ يَوْمَ قَامَتْ ... بِنَصْلِ السَّيفِ وَاسْتَلَبُوا الخِمَارَا
غَذَاهَا قَارِصٌ يَغْدُوا عَلَيْهَا ... وَمَحْضٌ حِينَ تنتظر العِشَارَا[1]

استجار السُّلَيْك بامرأة من بني عوار، فأجارته، فمدح جوارها، مؤكداً هذا المدح بالقسم واللام (لَعَمْرُ أَبِيكَ لَنِعْمَ الجَارُ أُخْتُ بَنِي عُوَارَا). والعَمْرُ: مدة تعمير الإنسان في الدنيا، وطول هذه المدة مراد للشاعر؛ أراد بمدحه أن ينشر للمرأة سيرةً تمتد عمراً طويلاً، وهذا سر اصطفاء ما يدل على التعمير في جملة القسم (لَعَمْرُ أَبِيكَ)، وأصل هذا القسم: لَعَمْرُ أَبِيكَ قسمي[2]، لكنه أسقط الخبر (قسمي)؛ لشهرة استعمال الجملة في القسم. والإجمال واضح في أسلوب القسم، فلا يوجد فيه ما يصرح بالتفصيل، يحرك المتكلّم بهذا الإجمال نفس المخاطب للإصغاء لطلب تفصيل الإجمال، فإذا حصل للسامع ما ترقبه وقع من نفسه موقع الرضا والحسن والقبول. واعترض بين التفصيل والإجمال لزيادة التشويق (وَالأَنبَاءُ تَنْمِي)، بمعنى تكثر وتزداد وتنتشر، يقول: إن ما يحدّث به في شأن المرأة مما اشتهر بين الناس، ولم يترك سمعاً إلا طرقه. ثُمَّ شرع في التفصيل مؤكداً باللام (لَنِعْمَ الجَارُ أُخْتُ

---

(١) السُّلَيْك بن السُّلَكَة أخباره وشعره: ص٥٥، ٥٦.

(٢) يراجع لسان العرب: ج٦٠١/٤ (ع م ر).

بَنِي عُوَارَا)، لم تكتف نفسه بالتوكيد بالقسم فأكد باللام، فأظهر قوة المعنى في نفسه مع تنبيه المخاطب لغرابة ما يصل إلى سمعه قبل أن يساق له الكلام، ففي الحديث ما قد تنكره النفس وتستبعده، ويظهر هذا عند التصريح بالتفصيل (لَنِعْمَ الجَارُ أُخْتُ بَنِي عُوَارَا)، والجوار: الحماية والدفاع والنصرة، وهذا متوقع من الرجال، والشاعر يقول: إن صاحب الحماية والدفاع والنصرة امرأة من بني عوار، ولم يصرح باسمها في البيت؛ لأن شهرتها بين الناس بالجوار تغني عن ذلك. ولعل في تعريف الجوار بالألف واللام (الجَارُ) للعهد الذهني عند عموم الناس، فشهرتها بالجوار معلومة عند جميع الناس. وفي الإضافة (أُخْتُ بَنِي) دليل حسن جوارها الذي يتحدث عنه، حيث جعلها أختاً لعموم قومها، وهذا في الحقيقة متعذر، فمنهم الأب ومنهم الأخوة ومنهم أبناء العمومة وغير ذلك، وليسوا إخوانها على سبيل الحقيقة، وهو يريد وقوفها إلى جانب عموم قومها وقوف الأخت مع أخيها.

مِنَ الخَفِرَاتِ لَمْ تَفْضَحْ أَبَاهَا ... وَلَمْ تَرْفَعْ لِإِخْوَتِهَا شَنَارَا

انتقل من مدحها على حسن إجارتها له إلى الحديث عن شهرتها بذلك بين الناس (من الخفرات)، ومادة الخفر تدل في الأصل على معنيين: الحياء، والإجارة، يقال: خَفِرَت المرأةُ: استحيت، ويقال: خفَرْتُ الرّجُل خُفْرةً، إذا أَجَرْتَه وكنتَ له خَفيراً. وتَخَفَّرْتُ بفلانٍ، إذا استَجَرْتَ به. ويقال أخفَرْتُه، إذا بَعَثْتَ معه خفيراً[1]، والمقام أقرب إلى المعنى الثاني، فهي من القلائل المعدودين يقصدهم الناس للنصرة والإجارة. وحذف المسند إليه لشهرته، والأصل: هي من الخفرات. وقد ألحَّ الشاعر على المعنى، فذكر بعد جملة الخفر ما يؤكد المعنى (لم تفضح أباها ولم ترفع لإخوتها شَنارا)، وهذا سرّ

(١) يراجع مقاييس اللغة: ج٢/٢٠٣(خ ف ر).

الفصل، فصل بين الخفر وما يليه لكمال الاتصال؛ لأن الحاصل من الكنايتين (هي من الخفرات). كشف عن تجدد المعنى مع المرأة مع امتداد عمرها (لم تفضح أباها، ولم ترفع لإخوتها شَنارا)، تحدث عن مرحلتين من حياة المرأة، **الأولى** عندما كانت في حياة أبيها، **والثانية** عندما صارت بين إخوتها، وهي في كلا الزمانين من الخفرات، أجارت قاصديها في حياة والدها، وكنى عن ذلك بعدم فضحها لأبيها (لم تفضح أباها)، وتجير قاصديها بعد رحيل والدها وحياتها بين إخوتها، وكنى عن ذلك بعدم رفعها شناراً لأخوتها (ولم ترفع لإخوتها شَنارا)، والشنار: أقبح العار[1]، وتنكيره يحتمل القلة على معنى أنها لم يكن منها تفريط، ولو في أقل ما يتصور، ويحتمل تهويل العار على من ردّ من استنصر به واستجار للحماية من معتدٍ. والتقديم (ولم ترفع لإخوتها شَنارا) من أجل القافية، ولو جاء على الأصل لقيل: ولم ترفع شَنارًا لإخوتها. ووصل بين الكنايتين للتوسط بين الكمالين، حيث اتحدت الجملتان في الخبريّة، وحسّن الوصل اتفاق الجملتين في الفعلية ونوع الفعل، مع الاتحاد في المسند إليه والتماثل في المسند. وفعلية الجملتين (لم تفضح أباها – ولم ترفع لإخوتها شَنارا) ترمي إلى كثرة من يستنجدون بتلك المرأة، فالإجارة والنصرة تتكرر منها، والمقام مقام مدحٍ، وهذا يضيف للتجدد الاستمرارية، لم تنقطع المرأة عن ذلك. وواضح من الكلام أن حياة المرأة كانت مع أبيها ثُمَّ مع إخوتها، فهي بكر لم تتزوج، ولو كان لها زوج لنصّ عليه الشاعر، وهذا يسلم إلى استقصاء الشاعر أحوال المرأة مع أهلها، مع أبيها، ثُمَّ مع إخوتها. وفي مجمع الأمثال:

(١) يراجع لسان العرب: ج٤/٣٣٠ (ش ن ر).

"مِنَ الخَفِرَاتِ لَمْ تَفْضَحْ أَخَاهَا ... وَلَمْ تَرْفَعْ لِوَالِدِهَا شَنَارَا"(١)

وفي هذه الرواية نفى الفضح عن أخيها، فأفاد أن لها أخاً واحداً، ونفى رفع الشنار لأبيها، وقدم حالها مع أخيها على حالها مع أبيها، فبدأ بالأقرب في الوجود، وهو أخوها الحي، تلاه حالها مع أبيها.

والترتيب مقصود للشاعر، حيث بدأ بالإيجاز بأقل الجمل إفادة للمعنى (مِنَ الخَفِرَاتِ)، ثُمَّ أتبعه بالإطناب، فأعاد المعنى في جملتين (لم تفضح أباها ولم ترفع لإخوتها شَنارا)، ولو قدم الأطناب على الإيجاز لم يكن له الحسن نفسه. والجمل التي ذكرها الشاعر تليق ببكارة المرأة، فهي محتملة للحياء والعفة مع احتمالها للإجارة والنصرة، فالخفر متردد بين الدلالة على الحياء والدلالة على الإجارة، والكنايتان (لم تفضح أباها – ولم ترفع لإخوتها شَنارا) تحتملان الدلالة على العفة، وتحتملان الدلالة على الإجارة. والمقام هو الذي وجه الكلام لمعنى الإجارة والنصرة.

كَأَنَّ مَجَامِعَ الأَرْدَافِ مِنْهَا ... نَقى دَرَجَتْ عَلَيهِ الرِّيحُ هَارَا

النقا: كثيب الرمل، ومجامع الأرداف: الموضع الذي يلتقي فيه العجيزتان، وهو المنتصف الذي بينهما(٢). شبه ردف المرأة بكثيب رملٍ تتابعت الريح على منتصفه، فأسقطت الرمل وصار فيه فرجة. والشاعر يدلّ بهذا على تفاني المرأة في حمايته، وأنها تصدرت للقوم تقاتلهم بينما كان السُّلَيْك خلفها، تحميه بكامل جسدها، ولم تلتفت المرأة عند النصرة لكونها امرأة، وانشغلت

(١) مجمع الأمثال، لأبي الفضل، أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم الميداني النيسابوري (ت٥١٨هـ)، تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد، مطبعة السنة المحمدية (١٣٧٤هـ ١٩٥٥م): ج٢/٣٧٨.

(٢) يراجع لسان العرب: ج١٥/٣٣٩ (ن ق ا)، ج٨/٥٣ (ج م ع).

بالدفاع حتى شعر السُّلَيْك بهذا الموضع الذي وصفه من جسدها، وليس مقصده بكلامه الغزل، ووصف جمالها الحسيّ بعد الحديث عن محاسنها، بدليل مجيء التشبيه بعد ما يحتمل العفة والحياء (لم تفضح أباها، ولم ترفع لإخوتها شَنارا). وقد اعتنى بإظهار الصورة حين أكد التشبيه وقواه بـ(كأن)، ووصف النقا مرتين متتاليتين (درَجت عليه الريح هارا)، ولا يغني أحد الوصفين عن الآخر؛ لأن درجت عليه الريح معناه: تتابعت، وهذا التتابع يلزمه سقوط أكثر الرمل، يقال: دَرَجَتِ الرِّيحُ: تَرَكَتْ نَمانِمَ فِي الرَّمْلِ، والدَروجُ: الرِيحُ السريعة المَرّ[1]، و"الهارُ: السَّاقِطُ الضَّعِيفُ"[2]، فهي تفيد السقوط شيئاً فشيئاً. والتشبيه بتمامه يسلم إلى صغر أرداف المرأة، فهو كناية عن سرعتها وخفتها وهذا لازم للدفاع. ولم يعدم البيت مما يربطه بما قبله ويربطه بما بعهده، فالحديث عن أرداف المرأة مبني على ما قبله من عدم فضحها لأبيها، وعدم رفعها شناراً لإخوتها، وتقييد مجامع الأرداف بكونها منها (كأن مجامع الأرداف منها) ربط البيت بما بعده؛ فهو يفيد أنه لا يعلم الوصف المشار إليه إلا في هذه المرأة، وهذا يفتح الحديث عن غيرها من النساء، وقد ظهر في البيت التالي:

يَعَافُ وِصَالَ ذَاتِ البَذْلِ قَلْبِي ... وَيَتَّبِعِ المُمَنَّعَةَ النَّوَارَا

صادف السُّلَيْك في المرأة قوةً وافقت هواه في النساء، كنى بذات البذل عن المرأة الضعيفة العاجزة التي يستهان بها فينالها من حولها، ولا تحفظ عفتها خوفاً على حياتها، وهو يعاف هذا النوع، والعيافة: الكره، يقال: عافَ

(١) يراجع الصحاح: ج١/٣١٤ (د ر ج)، لسان العرب: ج٢/٢٦٨ (د ر ج).
(٢) لسان العرب: ج٥/٢٦٨ (هـ و ر).

الشَّيء يَعافه عِيافاً، إذا كره[١]، وكنى بالممنعة النوار عن المرأة القوية التي تصون نفسها. وذات البذل معناها: صاحبة البذل، اشتهر عن المرأة عجزها، فنالها كل من قصدها، فاشتهر عنها بذلها لنفسها، لا تعرف إلا به. والممنعة هي التي توالى عليها الامتناع فصار سجيةً فيها وطبعاً، وقد احترس له بالنوار، ومعناه: النَّافِرَة عن الشَّرّ وَالْقَبِيحِ[٢]؛ لأن امتناع المرأة على الإطلاق عيب فيها، وليس هذا من صفات المرأة التي يهواها قلب الشاعر، بل هي المرأة الممنعة عن غير ما يحل لها. وسلط العيافة على وصال ذات البذل، والوصل أقصى ما ينال من المرأة، فأبان عن فرط كرهه لها، وسلط التتبع على عموم أحوال الممنعة، فهو يهوى منها كلّ شيءٍ قليلاً أو كثيراً. وأسند عيافة ذات البذل وتتبع الممنعة للقلب؛ لأنه آلة الحب في الإنسان، هو الذي يهوى أو يكره. وأخّر الفاعل وقدّم المفعول (يَعَافُ وِصَالَ ذَاتِ البَذلِ قَلْبِي)؛ ليتوالى على سمع المخاطب بعد العيافة ما سلطت عليه، وهذا أعذر للشاعر، مع ما في التقديم من توكيد المعنى، ولو جاء الكلام على الأصل لقال: يعاف قلبي وِصال ذاتِ البَذل. وفعلية الجملتين ترمي إلى تكرر العيافة من ذات البذل، وأن طلب وصل الممنعة عن الشر يتجدد مع أحوال الشاعر. وقد وصل بين الجملتين للتوسط بين الكمالين مع عدم وجود المانع؛ لاتفاق الجملتين في الخبريّة، واتحاد الجملتين في المسند إليه، وحسّن الوصل الاتفاق في نوع الفعل. وهو يقدم بهذا البيت لبيان أن المرأة التي أجارته من النوع الذي يهواه، وقد ذكر دليل قوتها وامتناعها:

وَمَا عَجَزَتْ فُكَيْهَة يَوْمَ قَامَتْ ... بِنَصْلِ السَّيْفِ وَاسْتَلَبُوا الخِمَارَا

---

(١) يراجع مقاييس اللغة: ج٤/١٩٦ (ع ي ف).

(٢) يراجع لسان العرب: ج٥/٢٤٥ (ن و ر).

نفى عنها صفة العجز المستفادة من الكناية بذات البذل قبل ذلك، وأثبت لها القوة التي حدث عنها في الكناية بالممنعة النوار. وسلط النفي على العجْز **(وَمَا عَجَزَتْ)** فأفاد أن العجز لم يكن، أو كما يقول عبد القاهر لم يثبت أنه موجود. وصرح باسمها بعد أن هيء النفوس لمعرفتها، ونشر على المسامع صفاتها. وقتال المرأة لمن يطلبون السُّلَيْك واستلابهم خمارها دليل على أنهم غرباء عنها، وليسوا من قبيلتها بني عوار، ولو كانت منهم ما قاتلتهم من أجل السُّلَيْك الذي قصدهم للإغارة عليهم، وما استلبوا خمارها، وقد مدحها الشاعر في مطلع هذه الأبيات التي بين أيدينا وأضافها إلى عموم أبناء قبيلتها (لَنِعْمَ الجَارُ أُخْتُ بَنِي عُوَارَا)، وبين وجه المدح بأنها لم تفضح أباها ولم ترفع لإخوتها شنارا، ولا شكَّ أن قتال أبناء القبيلة للدفاع عن السُّلَيْك الغريب المغير يفضح الأب ويرفع الشنار لإخوتها، كيف تدافع المرأة عمن قدم لسرقة أبناء قبيلتها وقتل من تعرض له منهم؟ والأبيات تدعو لإعادة النظر في الرواية التي ساقها صاحب الأغاني، وهو يتحدث عن سبب قول السُّلَيْك لهذه الأبيات، يقول: "وقال أبو عبيدة أغار السُّلَيْك على بني عوار، بطن من بني مالك بن ضبيعة، فلم يظفر منهم بفائدة، وأرادوا مساورته، فقال شيخ منهم: إنه إذا عدا لم يتعلق به، فدعوه حتى يرد الماء، فإذا شرب وثقل لم يستطع العدو، وظفرتم به؛ فأمهلوه حتى ورد الماء وشرب ثُمَّ بادروه، فلما علم أنه مأخوذ خاتلهم وقصد لأدنى بيوتهم حتى ولج على امرأة منهم يقال لها: فكيهة، فاستجار بها، فمنعته وجعلته تحت درعها، واخترطت السيف، وقامت دونه، فكاثروها، فكشفت خمارها عن شعرها، وصاحت بإخوتها، فجاؤوا ودفعوا عنه حتى نجا من القتل"[1]. والأقرب

(١) الأغاني: ج٢٠/٢٤٦.

للمعنى ما ذهب إليه أبو هلال العسكر أن السُّلَيْك استجار بالمرأة من بكر بن وائل، يقول: "(أوفى من فكيهة)، وهي بنت قتادة بن مشنوء خالة طرفة، ومن وفائها أن سليك بن سلكة غزا بكر بن وائل، فرأى القومُ أثرَ قدم على الماء، فرصدوه حتى إذا ورد وشرب وثبوا عليه، فعدا فأثقله بطنه، فولج قبّة فكيهة، فاستجارها، فأدخلته تحت درعها، ونادت إخوتها، فجاءوا ومنعوه"(١). والنصل: حَدِيدَةُ السَّيْفِ مَا لَمْ يَكُنْ لَهَا مَقْبَض، فإِذا كَانَ لَهَا مَقْبَض فَهُوَ سَيْفٌ(٢)، والإضافة هنا (بنصل السيف) يفهم منها أنه يتكلّم عن سيفٍ له مقبض ونصل، وتقييد القيام بالنصل وحده (يوم قامت بنصل السيف) يظهر أن النصل هو المستعمل وحده، فظهر مراده، وهو التنبيه على أن النصل فارق المقبض لكثرة استعمال السيف في الدفاع. وهذا يتفق مع قوة المرأة المشار إليها، وشهرتها بالدفاع والإجارة في حياة أبيها وحياة إخوتها من بعده، مع ما فهم من الكلام أنها لم تتزوج، وسرّ ذلك واضح وهو انقطاعها لنصرة قاصديها وحمايتهم. وحذف الشاعر من الكلام ما قامت القرائن عليه، فلم يذكر أنها قامت تقاتل؛ لدلالة تقييد القيام بنصل السيف على القتال. وانتصار المرأة على من تقاتلهم واضح في استلاب الخمار (واستلبوا الخِمارا)، اجتهدت في الدفاع حتى أسقطت السيوف من أيدي المقاتلين، فلجأوا إلى القتال بأيديهم، ولا زال كل منهم يحاول أن يشد خمارها وهي تجهز عليه حتى سقط خمارها، وصيغة الاستفعال (استلبوا) تظهر اجتهادهم في الشدّ، فاستلاب الخمار كناية بعيدة عن الإجهاز والانتصار على المقاتلين. وفي مجمع الأمثال:

---

(١) جمهرة الأمثال: ج٢/٣٤٧.

(٢) يراجع لسان العرب: ج٣/١٠٥٠ (ن ص ل).

"عَنَيْتُ بِهَا فُكَيْهَةَ حينَ قَامَتْ ... كَنَصْلِ السَّيْفِ فَانْتَزَعُوا الخِمَارَا"(١)

ربط البيت بما قبله، فبعد حديثه عن أخت بني العوار أوضح أنها فكيهة، فبين البيتين شبه كمال اتصال، أثار حديثه عن أخت بني العوار سؤالاً في النفس عن تحديدها كأنه قيل: ومن تعني بأخت بني عوارا؟ فأجاب: عنيت بها فكيهة...، وقيّد قيامها بالحين (حينَ قَامَتْ)، أبهم وقت قيامها؛ ليفيد أنه ليس لها وقت محدد لنصرة المستجيرين بها، فهي تنهض للدفاع ولا تعتبر الوقت. وشبهها بحديدة السيف في المضاء (كَنَصْلِ السَّيْفِ)؛ ليفيد سرعتها في إجابة من يطلبها. ثُمَّ سجل سرعة إجهازها على المقاتلين (فَانْتَزَعُوا الخِمَارَا)، وهذه الرواية تفيد إتقان المرأة للقتال، وأنها تسرع التغلب على المقاتلين، فرتب بين ما يفيد النهوض للقتال وبين ما يفيد الإجهاز على المقاتلين بالفاء (قَامَتْ كَنَصْلِ السَّيفِ فَانتَزَعُوا الخِمَارَا). ولو حمل الكلام على معنى مكاثرتهم للمرأة وتغلبهم عليها حتى أسقطوا خمارها لظهر عجزها، ولتعارض هذا مع غرض الشاعر، فإنه نفى عنها العجز في حالين: حال القتال (يوم قامت بنصل السيف/كنصل السيف)، وحال الإجهاز على المقاتلين (واستلبوا الخِمارا/فانتزعوا الخمارا).

غَذَاهَا قَارِصٌ يَغْدُوا عَلَيهَا ... وَمَحْضٌ حِينَ تنتظر العِشَارا

قتال المرأة وانتصارها يؤذن بنجاة السُّلَيْك، وقد حمله هذا على الدعاء للمرأة بأن تسقى لبناً قارصاً حين تكون الإبل في المرعى، وأن تسقى لبناً محضاً حين ترجع الإبل بعد الرعي، والقارِصُ: اللبن الحامض، والمَحْضُ: اللبن الخالصُ، وهو الذي لم يخالطه الماء، حلواً كان أو حامضاً(٢)، وتقييد

(١) مجمع الأمثال: ج٢/٣٧٨.

(٢) يراجع الصحاح: ج٣/١٠٥٠ (ق ر ص)، ج٣/١١٠٤ (م ح ض).

سقيا المحض بانتظار العشار يقطع أن المراد به اللبن الحلو، وليس الحامض. والتنكير في نوعي اللبن (قَارِصٌ – مَحْضٌ) فيه إبهام يشي بقارصٍ ومحضٍ من نوعٍ خاصّ فريدٍ لا يكون إلا مع تلك المرأة التي أجارته. ووضع الخبر موضع الإنشاء (غَذَاهَا قَارِصٌ يَغْذُوا عَلَيهَا...)؛ لإظهار الحرص على وقوع المطلوب. ودلّ على فرط رغبته في تحقق دعائه بصيغة الماضي (غَذَاهَا). والمطابقة بين الغدو وما يدل على المساء من أجمل ما حصل عليه الشاعر، طابق بين (يغدو) و(حِينَ تنتظر العِشَار)، والغدو من الغُدْوَة، وهي ما بين صلاة الصبح وطلوع الشمس[١]، ويطابقها المساء المدلول عليه بانتظار العشار، عدل الشاعر عن التصريح بالمساء، فأفاد به زيادة في المعنى لم تكن عند التصريح. والعشار يتعدد معناها، ويحددها المقام تحديداً دقيقاً، فهو يطلق على كلّ حامل من الْخَيْلِ والإبل، والعِشَارُ الَّتِي قَدْ أَتى عَلَيْهَا عَشَرَةُ أَشهر، والعِشارُ: النُّوقِ حتى يُنْتج بعضُها، وبعضُها يُنْتَظَرُ نِتاجُها، والعشار: التي أَتى عَلَيْهَا عَشَرَةُ أَشهر مِنْ نِتَاجِهَا[٢]. وتقييد سقيا المحض بكونه عند انتظار العشار، يحدد نوعها، وأنها التي تنتج اللبن. وجملة الغدو وما يطابقها دليل على كرم المرأة في قومها، وأنها مخدومة، فالغدو باللبن القارص يتكرر، والرواح باللبن المحض يتكرر، والمرأة هي التي تنتظر العشار، وليست من يأتي بالعشار من المرعى، ويتضح هذا عند النظر في الإسناد ومراجعته، فإسناد الغدو للمفعول مجاز عقلي علاقته المفعولية، والأصل يغدو به من يخدمها، لكن الإسناد للمفعول أظهر المبالغة في أتمّ صورها، كثر الغدو عليها باللبن القارص وبُولغ فيه، حتى تجاوز الغدو إلى اللبن، هو الذي يغدو عليها بنفسه. ومثله يقال في اللبن المحض بعد تأويل ما يدل على الرواح (حِينَ تنتظر العِشَار).

---

(١) يراجع لسان العرب: ج١٥/١١٦ (غ د و).

(٢) يراجع لسان العرب: ج٤/٥٧٢ (ع ش ر).

(٥) رحيل المرأة

[من الوافر]

أَلَا عَتَبَتْ عَلَيَّ فَصَارَمَتْنِي ... وَأَعْجَبَهَا ذَوُو اللِّمَمِ الطِّوَالِ
فَإِنِّي يَا ابْنَةَ الأَقْوَامِ أُرْبِي ... عَلَى فِعْلِ الوَضِيِّ مِنَ الرِّجَالِ
فَلاَ تَصِلِي بِصُعْلُوكٍ نَؤُومٍ ... إِذَا أَمْسَى يُعَدُّ مِنَ العِيَالِ
إِذَا أَضْحَى تَفَقَّدَ مَنْكِبَيْهِ ... وَأَبْصَرَ لَحْمَهُ حَذَرَ الهُزَالِ
وَلَكِنْ كُلُّ صُعْلُوكٍ ضَرُوْبٍ ... بِنَصْلِ السَّيْفِ هَامَاتِ الرِّجَالِ
أَشَابَ الرَّأْسَ أَنِّي كُلَّ يَوْمٍ ... أَرَى لِي خَالَةً وَسْطَ الرِّحَالِ
يَشُقُّ عَلَيَّ أَنْ يَلْقَينَ ضَيْماً ... وَيَعْجَزُ عَنْ تَخَلّصِهِنَّ مَالِي[1]

ينكر الشاعر على صاحبته انصرافها عنه، وميلها إلى رجلٍ تظهر عليه معالم الرّاحة من الوضاءة وطول اللمة (أَلَا عَتَبَتْ عَلَيَّ فَصَارَمَتْنِي). والعتاب في حيز الإنكار معناه النفي، لم تعتب عليه، فظهر أنها فاجأته بانصرافها عنه من غير سببٍ ظاهرٍ يوجب الفراق، والعتاب دليل ما كان بينهما من صفاءٍ ومودة. والفاء تبدي عجلتها بالصرم (فَصَارَمَتْنِي)، والواو بعدها تشرك بين الصرم والالتحاق بصاحب اللمة (وَأَعْجَبَهَا ذَوُو اللِّمَمِ الطِّوَالِ). كنى بإعجابها بأصحاب اللمم عن الالتحاق بواحدٍ منهم، انصرفت عندما حصل الإعجاب، وهذه هي السرعة التي كان بها الانصراف المدلول عليه بفاء التعقيب بلا مهلة. والكناية تظهر معالم الألم في نفس الشاعر، لم ينكر عليها صحبة غيره، لكن أثر في نفسه إعجابها بغيره، وهو يعلم من نفسه الرقّ والسّواد والفقر، فإذا مالت عنه – بعد أن رضيته زمناً ونعم بها – إلى غيره علم أنها لم ترض منه صفاته، ومالت إلى من هو أفضل منه.

---

(١) السُّلَيْك بن السُّلَكَة أخباره وشعره: ص٦١، ٦٢.

وفي الكناية إشارة إلى طبيعة الارتباط بين الرجل والمرأة في بيئة الصَّعَاليك، تكون معه إذا أعجبت به، فإن أعجبها غيره انصرفت، ولحقت بمن رضيته، وميلها إلى عددٍ كبيرٍ من ذوي اللمم (وَأَعْجَبَهَا ذَوُو اللِّمَمِ الطِّوَالِ) يبدي هذا المعنى، فهي تتخير. وجمال الصورة الملحوظ من الحديث عن ذوي اللمم يبدي المقارنة بينهم وبين هيئة السُّلَيْك، ويبشر برده عليها، وهنا يرتبط البيت بالبيت الذي يليه، فقد التفت من الغيبة التي تظهر عدم اعتنائه بمن يتحدث عنها إلى التكلّم حين هجاها، والمواجهة بالشتم أشدّ على النّفس، وآلم للخصوم، فأشار إلى ضعة أصلها، بأنّها ابنة أقوام، لا يعلم لها نسب تنتهي إليه، لكنها ابنة كثيرين (فَإِنِّي يَا ابْنَةَ الأَقْوَامِ)، وندائها بأدة البعد (يا) يحتمل ما عليه حالها من البعد حين انصرفت، ويحتمل بعدها في ضعة النسب، وفحولة الشاعر لن تترك لهذا الاحتمال نصيباً؛ لأنّ التعمية صفة متصنعي القول، أما الفحول المطبوعون، فيكشفون المعنى بما أمكنهم؛ لأن البيان أدقّ صفاتهم. وأظهر من نفسه معالم رجولته (فَإِنِّي...أُرْبِي عَلَى فِعْلِ الوَضِيِّ مِنَ الرِّجَالِ)، لكنه لم ينكر فعل غيره، فالتفضيل (أُرْبِي عَلَى فِعْلِ الوَضِيِّ) يظهر أن غيره جيد الفعال، لكنه يفوقه في تلك الفعال. والتوكيد بـ(إن) وإسمية الجملة يناسب المتردّد أو من هو في منزلته، وهو يشير بهذا الاستعمال إلى عجلتها، كان منها الانصراف والميل إلى غيره عندما خالج قلبها التردد في شأنه. ووضاءة من أعجبها ومالت إليه يحدد سبب انصرافها عن السُّلَيْك، وهو بشاعة هيئته. وهو يدعوها إلى مقارنة أفعاله بأفعال من فضّلته عليه لوضاءته، وهذا يبشر بالحديث عن تفصيل تلك الفعال والوقوف على دقائقها بعد ذلك، لكنّه يعالج ما يفهم من ظاهر التصريح بالوضاءة (الوَضِيِّ مِنَ الرِّجَالِ) التي توهم في الظاهر بأن الرجل الذي مالت إليه عريق في النعمة

التي أثرت في هيئته، فيكشف أن الذي مالت إليه صعلوك خامل سبب وضاءته تخلفه عن الإغارة:

فَلاَ تَصِلِي بِصُعْلُوْكٍ نَؤُومٍ ... إِذَا أَمْسَى يُعَدُّ مِنَ العِيَالِ

إِذَا أَضْحَى تَفَقَّدَ مَنْكِبَيْهِ ... وَأَبْصَرَ لَحْمَهُ حَذَرَ الهُزَالِ

والاستئناف بالفاء يبدي رغبته في الإسراع بالردّ عليها (فَلاَ تَصِلِي بِصُعْلُوكٍ نَؤُومٍ)، وهو يحدث بعد الفاء عن محرومٍ حقيرٍ (صعلوك) صعلكته تفيد تنكّر الناس له لضعة نسبه أو فقره، والتنكير (صعلوك) يكشف أنه مبهم حقير، فكيف تحفل به المرأة؟ كنى عن كسل وخمول الرجل الذي مالت له بأنه صعلوك كثير النوم كما يفهم من صيغة المبالغة (نَؤُومٍ)؛ وكنى عن عجزه عن الإغارة بأنه إذا أمسى يعدّ من العيال، فأفاد بهذه الكناية أن طلب المال والسعي عليه في بيئة الصَّعَاليك يكون ليلاً، على خلاف ما عليه العادة بأن طلب الرزق يكون نهاراً والراحة تكون ليلاً، ولم يسند الحكم لنفسه، لكنه بنى الفعل لما لم يسم فاعله (يُعَدُّ مِنَ العِيَالِ)، ليفيد اطّراد الحكم، يحكم بعجز ذلك الصعلوك كلّ من وقف على حاله، وهم لكثرتهم لم يسند الفعل لواحدٍ منهم أو جماعةٍ معلومة، لكن بني لما لم يسم فاعله ليتأتى الدّلالة على كثرة أولئك الذين كان منهم الحكم على الصعلوك بالعجز. ووقوع المعنى في حيز (إذا) يرمي إلى تحقق العجز، ولو كان قويًّا لنهض إلى الحصول على المال. وكنى عن فقره بأنه إذا أصبح تفقّد منكبيه وأبصر أثر الهزال في لحمه، والوصل بين الجملتين (تَفَقَّدَ مَنْكِبَيْهِ – وَأَبْصَرَ لَحْمَهُ حَذَرَ الهُزَالِ) ينبه على المبالغة في البحث، يبدأ بتفقد المنكبين، وينتقل بعدهما إلى تبصّر لحم جسده كاملاً، والتفقد (تَفَقَّدَ) دليل المبالغة في البحث، والتبصر (وَأَبْصَرَ) دليل المبالغة في تقليب العينين. وصدر الكناية بـ(إذا)؛ ليفيد تحقق الفقر كما

أفاد تحقق الضعف قبل ذلك. والحذر توقع الضرر لردّه[١]، فالصعلوك الحذر غاية ما يرجوه ما يكون به سدّ جوعه؛ ليردّ الهزال عن نفسه. والطباق بين المساء والضحى يربط بين وصفين يسلّمان إلى معنى الخيبة وفساد العقل (إِذَا أَمْسَى يُعَدُّ مِنَ العِيَالِ – إِذَا أَضْحَى تَفَقَّدَ مَنْكِبَيْهِ)، ترك السعي لطلب المال في وقته الذي ينطلق فيه الصَّعَاليك لتحصيل المال، وهو وقت المساء حيث يكون السطو والإغارة، فإذا كان الصباح قلّب عينيه في جسده خوف ظهور النحول على اللحم. والصفات التي ساقها الشاعر لا تؤهل الرجل لميل المرأة؛ لأن المرأة تحب الرجل الماهر الغني القوي، ومجيء هذه الكنايات في معرض إنكار السُّلَيْك وبيان المفاضلة يكشف به الشاعر أنه يحمل ما يخالف صفات الرّجل الذي مالت إليه، من المهارة والقوّة والغنى. وحسن الترتيب بين الكنايات واضح، فهي مرتبة على بعضها، فالكسل والميل إلى النوم والراحة يحمل صاحبه على عدم طلب ما يغنيه، فيكون الفقر الذي يظهر أثره على سائر أجزاء الجسد. وفصل بين الكنايات الثلاث؛ ليفيد أنها مجتمعة في الصعلوك المحدث عنه، وحاله من السوء والخيبة مع هذا لا يخفى. وفحولة الشاعر تظهر من التدرج في التعبير، حيث دلّ على الكناية عن الكسل بكلمة (نَؤُومٍ)، ودل بعدها على الكناية عن العجز بجملة (إِذَا أَمْسَى يُعَدُّ مِنَ العِيَالِ)، ودل بعدهما على الكناية عن الفقر الفاحش بجملتين (إِذَا أَضْحَى تَفَقَّدَ مَنْكِبَيْهِ – وَأَبْصَرَ لَحْمَهُ حَذَرَ الهُزَالِ)، وجمع الكنايات الثلاث في التنكير عندما استأنف الحديث (بِصُعْلُوكٍ). والنهي (فَلاَ تَصِلِي بِصُعْلُوكٍ نَؤُومٍ...) خرج لمعنى مجازي هو التشفّي، ولا يمكن حمله على حقيقة من طلب الكفّ مع الاستعلاء، فقد

(١) يراجع الفروق اللغوية: ص٢٠٠.

انصرمت عنه معجبةً بغيره، ولا يد له عليها لينهاها. وفعل الوصل يتعدّى بنفسه، وكان يجوز أن يقال: فَلاَ تَصِلِي صُعْلُوكاً نَؤُوماً، لكنّه أتى بباء الإلصاق، فأفاد أنه ينهاها عن تمام المصاحبة، فظهر يأسه من إقناعها، وأنها ستصاحب ذلك الصعلوك صاحب اللمة، وهو ينهاها عن طول المصاحبة والملازمة. وفي الحماسة البصرية: "فلا يَغْرُرْكَ صُعْلُوكٌ نَؤُومٌ"(١)، هذه الرواية صرّحت بالغرور الذي يحمل على معنى المبالغة في الإعجاب، وهي تناسب التصريح بالإعجاب قبل ذلك (وَأَعْجَبَهَا ذَوُو اللِّمَمِ الطِّوَالِ)، وعالجه في هذه الرواية فنهاها عن عدم المبالغة في الإعجاب (فلا يَغْرُرْكَ صُعْلُوكٌ نَؤُومٌ).

ولكنْ كُلُّ صُعْلُوكٍ ضَرُوبٍ ... بنَصْلِ السَّيفِ هاماتِ الرِّجالِ

نهاها قبل ذلك عن صحبة العاجز الفقير الضعيف، وهو هنا يذكر البديل المتمثّل في صحبة شجاع، ومثل هذا الإطناب يكون مع البليد ضعيف الإدراك، يذكر له كلّ شيءٍ؛ لأن عقله لا يقوى على تمام التحصيل، نال منها حين قدّمت غيره عليه. ولم يظهر فعل الوصل في هذا البيت، ولو أظهر لجاء مؤخّراً، بأن يقال: ولكنْ كُلُّ صُعْلُوكٍ ضَرُوبٍ بنَصْلِ السَّيفِ هاماتِ الرِّجالِ صليه، وإسقاط الفعل مع تحتّم تقديره مؤخّراً إشارة إلى أن هذا الوصل بعيد، وأن المرأة لا تسمع له، وتلك طبيعة الصَّعَاليك، المتمثلة في التمرّد، وإن كان ذلك في حيز بيئتهم. ولم يأت لصفات الصعلوك السابق بثلاث صفاتٍ تقابلها، بل جاء بكنايةٍ واحدةٍ عن فرط الشجاعة، أفاد بها مجانبة الكسل والعجز والفقر دفعة واحدة، فحدّث عن شجاعٍ كثير الضرب

(١) الحماسة البصرية، لعلي بن أبي الفرج بن الحسن (ت٦٥٩هـ)، تحقيق: مختار الدين أحمد، الناشر: عالم الكتب – بيروت:ج١/١٠٩.

بالسيف (ضَرُوبٍ)، وأفاد بذكر نصل السيف حسن الاستعداد للمواجهة؛ لأن نصل السيف: حديدته التي تقطع[١]. وفي الضرب بنصل السيف القرب من المقاتل ومواجهته، بخلاف من يرمي بحربةٍ أو رمح فهو أقل شجاعة، وجعل ضرب السيف يصيب هامات الرّجال، ويصل الفارس إلى ذلك بعد طول قتالٍ يسقط به أحد المتقاتلين فيكون له ممن أسقطه ضربة على هامته (رأسه)[٢] يفارق بها الحياة. وواضح من البيت أن انتقال المرأة وتحولها يكون من صعلوكٍ إلى صعلوكٍ، وهذا يلمح في خفاء إلى ضعة المرأة مجهولة النسب ابنة الأقوام، لا تتحول من صعلوكٍ إلى شريفٍ حسيبٍ نسيبٍ؛ لأنّ ضعة نسبها تمنعها من ذلك، وتجعلها تتحوّل بين الصَّعَاليك، وغاية ما يمكن أن يبلغه جهدها أن تكون مع صعلوكٍ فتّاكٍ قويٍّ لا مع صعلوكٍ خامل عاجزٍ فقير. ووصل بين جملة الأمر (ولكنْ كُلُّ صُعْلُوكٍ ضَرُوبٍ)، بجملة النهي قبلها (فَلاَ تَصِلِي بِصُعْلُوكٍ نَؤُومٍ...) للتوسط بين الكمالين مع عدم وجود المانع.

أَشَابَ الرَّأْسَ أَنِّي كُلَّ يَومٍ ... أَرَى لِي خَالَةً وَسْطَ الرِّحَالِ

يَشُقُّ عَلَيَّ أَنْ يَلْقَينَ ضَيْماً ... وَيَعْجَزُ عَنْ تَخَلّصِهِنَّ مَالِي

الحديث عن الشجاعة والقوة يوهم بأن الرّحمة واللين لا وجود لهما في حياة الفتّاك، والسُّلَيْك يعالج هذا، ويتحدث عن فزعه حين يرى امرأة من أهله تعاني الرقّ، ولا حيلة له لتخليصها بالمال. كنى عن بالغ فزعه بشيب الرأس (أشاب الرأس)، وتعريف الرّأس بالألف واللام يفيد استغراق الشيب جميع شعر الرأس، والتعبير عن الشعر بالرأس يتصل بهذا، فهو مجاز مرسل

(١) يراجع لسان العرب: ج١١/٦٦٢ (ن ص ل).

(٢) يراجع مقاييس اللغة: ج٦/٢٧ (هـ م م).

علاقته المحلية، عبر بالرأس عن الشعر؛ ليفيد أن الشيب أصاب جميع شيب الرأس. وكشف عن معرفته التّامة بأصوله من جهة أمه (أَنِّي كُلَّ يَومٍ أَرَى لِي خَالَةً وَسْطَ الرِّحَالِ)، يرى خالاته يبعن في السوق وتحملهن الرواحل وتتفرّق في البلاد. والظرف (وَسْطَ الرِّحَالِ) تنبيه على تمام عجز المرأة التي بيعت، فهي وسط الرحال، لا حيلة لها للفرار وتخليص نفسها، ولا حيلة للسُّلَيك للوصول إليها وهي وسط حراسة تلك الرّواحل، وفي سرح العيون: "أَرَى لِي حَالَةً وَسْطَ الرِّجَالِ"(١)، لم يقيد المرأة بكونها خالة أو غيرها، بل عمم، وهذا أوسع، وأبين لعذره، وأصدق لعجزه الذي حدّث عنه بعد ذلك، وصرح فيها بأن المرأة بين الرجال أصحاب الرواحل. والتقييد بالجار والمجرور (لي) مع تقديمه توكيد لتلك القرابة، ولو جاء الكلام على الأصل لقيل: أرى خالةً لي وسط الرحال. ولو لم يعلق الرؤية بالجار والمجرور لاحتمل أن تكون الرابطة التي يقصدها هي الرّق، فتكون المرأة من جنس الأرقاء، لكنه قيد بكونها خالة له، فأزال الاحتمال. وفصل جملة الشيب عما قبلها لكمال الانقطاع بلا إيهام، لاختلاف الجملتين خبراً وإنشاءً مع عدم وجود الجامع، فجملة الأمر توجيه للمرأة أن تميل إلى الفاتك من الصَّعَاليك، وهي إنشائيّة لفظاً ومعنى (ولكنْ كُلُّ صُعْلُوكٍ ضَرُوبٍ...)، وجملة الشّيب حديث عن رحمته بأصوله من جهة أمه، وهي خبريّة لفظاً ومعنى.

وقد كشف الشاعر عن شيءٍ من أسباب صعلكته (يشقّ عليّ أن يلقين ضيماً)، فهو يؤمن بالمساواة بين جميع البشر، ويرى ما يتعرض له الأرقاء ظلماً أجبروا عليه، وهذا يفسر شيب جميع رأسه؛ لأن الظّلم الذي يتحدث عنه ممتدّ، وهو يعاينه كلّ يوم كما قال قبل ذلك. وجملة الضيم

(١) سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون: ص١٣٠.

توكيد لما قبلها، وهذا سرّ الفصل بين الكلامين، فبين الجملتين كمال اتصال، الجملة الثانية (يشق عليّ أن يلقين ضيماً) توكيد للأولى (أرى لي خالةً وسط الرحال)، وإنما دعاه للتوكيد أن جملة الضّيم كشفت مرارة نفسه بذلك الضيم بعد أن كشفت الجملة التي قبلها سبب شيب رأسه. ورؤية ما تسبب له بالشّيب تتكرر، وضيق النفس متكرّر (يشق) كما تفيد صيغة المضارع. وعطف على بيان مرارة النّفس بالضيم عجزه عن تخليصهن بالمال (وَيَعْجَزُ عَنْ تَخَلّصِهِنَّ مَالِي)، جعل المال يعجز على طريقة المجاز العقلي بعلاقة المفعولية؛ لأن الذي يعجز هو صاحب المال، أراد المبالغة في العجز الذي عمّه حتى سرى إلى المال فصار المال عاجزاً. وهو يكشف سرًّا من أسرار النخاسة يتمثل في أن الرقيق لا يباع لرقيق، وإن وجد معه المال، وهذا ضيم يشفع بالضيم الذي قبله، ويدخل في حيزه، فظهر أن الذي شقّ على السُّلَيْك أمران، أحدهما: وقوع الضيم على خالاته، والآخر: عجزه عن تخليصهن بالمال.

ووصل بين الجملتين (أن يلقين ضيماً – ويعجز عن تخلصهن مالي)؛ لأن الجملة الأولى لها محلّ من الإعراب، فهي في محل رفع فاعل، وأريد التشريك بينها وبين ما بعدها في الحكم.

والأبيات تكشف عن طبيعة وجود المرأة في بيئة الصَّعَاليك، وهي تثبت أصلاً إنسانياً، لا يمكن أن تكون الحياة من غير المرأة، وهي تتخير وتعجب، وتلتحق بمن تشاء.

(٦) كثرة النساء الذميمات في بيئة الصَّعَاليك

[من الطويل]

وَلَخْوَاءَ أَعْيَاهَا الإِطَارُ ذَمِيْمَةٍ ... بِهَا لَخَنٌ أَشْفَارُهَا لَا تُعَلَّمُ[١]

هذه إشارة إلى نوعٍ من النّساء في بيئة الصَّعَاليك، دلّ الشاعر على كثرتهن بإضمار (رُبَّ) في أول الكلام، بعد أن طوى الموصوف إيجازاً، ولو جاء الكلام على الأصل لقيل: (ورُبَّ امرأةٍ لَخواءَ أعياهَا الإطار ذَمِيْمةٍ...)، ويبدو أن تلك الكثرة كانت سبب معاناةٍ له، وكلامه يشير إلى طبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة في بيئة الصَّعَاليك، يتصل الرجل بمن شاء، فلا يوجد الزواج المرتب عليه الغيرة وحفظ المرأة، وهذا التردي الأخلاقي يجعل المرأة تمرّ على جميع الرجال، وهو في هذا البيت يلمح إلى كثرة النساء ذوات الصفات اللاتي أشار إليها.

بدأ حديثه عن أدقّ ما تهفو إليه نفس الرجل، فوصفها باللخا: وهو ميل في الفرج واضطرابه وكثرة مائه وتدلي البطن[٢]، ثُمَّ كنى عن غاية قبحها بعزلتها (أعياهَا الإطار) من قولهم: تَأَطَّرَتِ المرأةُ تَأَطُّراً، إذا أَقامَتْ في بيتها[٣]، والسياق يحدد أن المرأة لا تحتجب على تلك الصورة إلا إذا كانت بالغة السوء، وهو يلحق بهذه الكناية وصفها بكونها ذميمة، وهي (فعيل) بمعنى (مفعول)، أفادت الصيغة أنها مذمومة من غيرها بعد أن أفادت الكناية بأنها تبالغ في عزل نفسها. والترتيب بين كونها ذميمة وأنها تعزل نفسها له محلّه من النظر؛ قد يقال: وما يمنعها أن تقطع تلك العزلة؟

---

(١) السُّلَيْك بن السُّلَكَة أخباره وشعره: ص٦٤.

(٢) يراجع لسان العرب: ج١٥/٢٤٣، ٢٤٤ (ل خ ا).

(٣) يراجع الصحاح: ج٢/٥٠٨ (أ ط ر).

فجاء بعدها بما يمنع ذلك، وهو كونها مذمومة من غيرها. وجاء بدليل محسوس لنبذها، وهو نتن ريحها المدلول عليه باللخن[١]، والتقديم (بها لَخَنٌ) رغبة من الشاعر في توكيد المعنى، ولو جاء على الأصل لقال: لَخَنٌ بها. ثُمَّ كنى عن عدم اهتمامها بالزينة بكون (أشفارها لا تُعلَّم)، والأشفار أصول منابت الشعر في جفن العين[٢]، لا تضع شيئاً من الزينة يحسّن حالها، ويظهرها في صورةٍ مرضيّةٍ لغيرها. والرواية التي أثبتها الديوان (أشفارها لا تُعلَّم)، وهي تختلف عن رواية كتاب الجيم الذي نقل منه محققا الديوان البيت "أشفارها لا تُقلَّم"[٣]، والمعنى واحد، وهو تزيين العين بالقلم أو الأداة التي أعدت لذلك. ونفى الزينة عنها بـ(لا) التي تستعمل في النفي في الحال والاستقبال، فهو يقرر باستعمال (لا) أنها لا يكون منها تحسين هيئتها في الحال ولا فيما يستقبل من عمرها. واختار من أنواع الزينة الاكتحال المدلول عليه بتقليم الأشفار؛ لأنه أقلّ ما يتصور من أنواع الزينة، حيث تعوّد عليه النساء حتى خرج عن قصد الزينة وصار عادة عند النساء. والأسلوب إنشاء غير طلبي، فصل بين الصفات؛ ليدلّ على اجتماعها في تلك المرأة. وقد نوع في الصفات فمنها جملة، ومنها مفرد، ونوع في الجمل بين التصريح والكناية، والغرض واحد، وهذا من فحولة الشاعر وقوة تمكنه.

---

(١) يراجع مقاييس اللغة: ج٥/٢٤١ (ل خ ن).

(٢) يراجع الصحاح: ج٢/٧٠١ (ش ف ر).

(٣) الجيم، لأبي عمرو، إسحاق بن مرّار الشيباني (ت٢٠٦هـ)، تحقيق: إبراهيم الإبياري، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة (١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤م): ج٣/١٥١.

(٧) إيقاع النَّوَارِ به

[من الطويل]

تُحَذِّرُنِي أَنْ أَحْذَرَ العَامَ خَثْعَمَا ... وَقَدْ عَلِمَتْ أَنِّي امْرُؤٌ غَيْرُ مُسَلَمِ
وَمَــا خَثْعَمٌ إِلَّا لِئَــامٌ أَدِقَــةٌ ... إِلَى الذُّلّ وَالإِسْخَافِ تُنْمَى وَتَنْتَمِي[١]

لقي السُّلَيْك مالك بن عمير الخثعمي ومعه امرأة تسمى (النوار) فأسرهما، فأراد الرجل أن يفدي نفسه وترك المرأة رهينة، فتزوجها السُّلَيْك بعد أن رضيته، وحذرته من خثعم، فأنشد البيتين[٢]. ويبدو أن رضا المرأة به كانت حيلةً للإيقاع به والإفلات منه بعد أن تمكن منها، ورفض أن يعيدها لزوجها، فرضيته في الظاهر، وألهبته على خثعم من خلال تحذيرها له بعد أن علمت عناده، وأنه لا يزيده التحذير إلا إصراراً على عداوة خثعم، وقد نجحت المرأة في قصدها، حيث بلغ البيتان اللذان أنشدهما خثعم، فاحتالوا لقتله.

أراد أن يثبت إلحاح المرأة في تحذيره وتكرر ذلك فجاء بجملةٍ تحمل الحدث وزمنه (تُحَذِّرُنِي أَنْ أَحْذَرَ العَامَ خَثْعَمَا)، ووراء الإلحاح تمسكها به وحرصها على سلامته في الظاهر، وتكرّر الإلحاح منها حمله على التصريح بالتحذير مرتين (تُحَذِّرُنِي – أَنْ أَحْذَرَ). وسلط حذرها على أيام العام كله (أَنْ أَحْذَرَ العَامَ)، مع تقديم الظرف عن موضعه؛ لأن الأصل: أَنْ أَحْذَرَ خَثْعَمَا العَامَ. والتعبير بالعام تنبيه على دوام الترقب والحذر كلّ يومٍ؛ لأن العام جمع أيام، بخلاف السنة فهي جمع شهور[٣]، كما أن التعبير

---

(١) ديوان السُّلَيْك بن السُّلَكَة: ص٦٧.
(٢) يراجع الأغاني: ج٢٠/٢٤٧، ٢٤٨.
(٣) يراجع الفروق اللغوية: ص١٢٤.

بالعام يناسب رجاء سلامته؛ لأنه يكون فيما يحمد بخلاف السنة(١). ويظهر من كلامها ثقتها في رجولته وقوته، فقد جعلته وحده في مقابل قبيلة خثعم بكلّ رجالها وعدتها، ويبدو أن المعنى وقع من نفسه موقع الرضا، فألح على إظهاره وبيانه، بدأ بإظهار معالم قوّته، ثُمَّ انتقل بعد ذلك لهوان خثعم، أما بيان قوته فصرح به في الشطر الثاني للبيت (وَقَدْ عَلِمَتْ أَنِّي امْرُؤٌ غَيْر مُسَلَمِ)، وحرف التحقيق مع التعبير بفعل العلم وتوكيد الجملة الإسمية في بيان العلم بـ(أَنَّ) يظهر معتقد نفسه؛ ليقرّر ذلك في أنفس كلّ من يحصل له الخطاب. والمروءة من دلائل قوّته (امْرُؤٌ)، ونفي التمكّن منه (غَيْر مُسَلَمِ) يشي ببسط الفزع في قلوب من حوله، يفرّون منه، ولا يتوقع أن يقبل أحد عليه لأسره وحمله إلى خثعم. والحديث عن عدم القدرة على إسلامه تعريض بذلّة رجال خثعم؛ لا يأتون إليه، بل ينتظرون من يتمكن من السُّلَيْك ويحمله لهم، وهذا يفتح الحديث عن ذلة خثعم التي حفل بها البيت الثاني:

وَمَــا خَثْعَمٌ إِلَّا لِئَامٌ أَدِقَّةٌ ... إِلَى الذُّلّ وَالإِسْخَافِ تُنْمَى وَتَنْتَمِي

واللؤم: البخل والشحّ والهوان، والدّقّة: الصغر والحقارة(٢)، قصر خثعم على اللؤم والدّقّة قصر موصوفٍ على صفةٍ، أكد بأسلوب القصر بخل خثعم وهوانها وحقارتها، ونفى عنها الكرم والعزة والرفعة. واستعمل في القصر طريق النفي والاستثناء الذي يخاطب به من يجهل الحكم؛ ليفيد أنه اختبر خثعم، ووقف على دلائل بخلها وحقارتها وهوانها، وهو يبدي من

(١) يراجع الكليات، لأبي البقاء، أيوب بن موسى الحسيني الكفوي (ت ١٠٩٤هـ – ١٦٨٣م)، تحقيق: دكتور/عدنان درويش – محمد المصري، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الثانية (١٤١٩هـ – ١٩٩٨م): ج١/٤٩٨.

(٢) يراجع مقاييس اللغة: ج٥/٢٢٦ (ل أ م)، ج٢/٢٥٨ (د ق).

خلال جملة القصر تلك التجربة للمخاطب الذي لم يكن له سابق خبرةٍ بصفات خثعم؛ ليشاركه المعرفة بتلك الصفات، فيطرد الحكم بين من بلغهم مضمون الخطاب، وهذا أدعى إلى نبذ تلك القبيلة واحتقارها، والشاعر يبدي هذه النتيجة في الشطر الثاني (إِلَى الذُّلّ وَالإِسْخَافِ تُنْمَى وَتَنْتَمِي)، قدم المتعلق (إِلَى الذُّلّ وَالإِسْخَافِ)، فأفاد به قصر خثعم على الذل والإسخاف المراد بها ضعف العقل(١)، قصر موصوفٍ على صفةٍ، يحكم عليهم كلّ من وقف على حقيقتهم بأنهم أذلّة قليلوا العقل، وبناء الفعل لما لم يسم فاعله (تُنْمَى) يهدي إلى أن من وقف على حقيقة أولئك القوم فاقت كثرتهم الحد فلم يتأت الإسناد إلى واحدٍ بعينه. وإسناد الانتماء بعد ذلك لخثعم (وَتَنْتَمِي) يحيط بها من جهة أخرى، فأفعالها تقودها للذل وقلّة العقل، وإن لم يوجد من يحكم عليها بذلك.

ويبدو أن المرأة أصابت في تحذيرها، فقد ذكر أبو الفرج الأصفهاني أن قول السُّلَيْك بلغ خثعم، فأدركه شبل بن قلادة بن عمر بن سعد وأنس بن مدرك الخثعميان فشد أنس على السُّلَيْك فقتله، وقتل شبل وأصحابه من كان مع السُّلَيْك، وكان السُّلَيْك علم بمقدمهما، فأنشأ يقول:

[من الرجز]

مَن مُبْلِغٌ حَرْباً بِأَنِّي مَقْتُولْ؟
يَا رُبَّ نَهْبٍ قَدْ حَوَيْتُ عُثْكُوْلْ
وَرُبَّ خِرْقٍ قَدْ تَرَكْتُ مَجْدُولْ
وَرُبَّ زَوْجٍ قَدْ نَكَحْتُ عُطْبُوْلْ
وَرُبَّ عَانٍ قَدْ فَكَكْتُ مَكْبُوْلْ

(١) يراجع لسان العرب: ج١٤٦/٩ (س خ ف).

وَرُبَّ وَادٍ قَدْ قَطَعْتُ مَشْبُوْلْ(١)

أدرك السُّلَيْك قرب مقتله، فوقف مع حياته يبحث ويقلّب في المواقف، فأشار إلى مواقفه فيها من كثرة نهابه، وكثرة قتلاه، وكثرة النساء الحسناوات اللاتي تزوجهن، وكثرة من خلصهم من محنتهم، وفرط شجاعته.

مَن مُبْلِغٌ حَرْباً بِأَنِّي مَقْتُوْلْ

تمنى من يخلصه من هذا الموقف الذي فرض عليه (مَن مبلغٌ حرباً بأني مقتولْ). واستعمال الاستفهام في التمني يظهر فرط أمله؛ لأن المُتَمَنَّى بعيد الوقوع، والمسْتَفْهَم عنه يكون مع أمرٍ محقّق، فاستعمل الاستفهام الذي يكون مع الأمر الحاصل المحقّق؛ ليدل على فرط تعلق نفسه بمن يخلصه. والتمني يكشف عن غربته وانفراده عن صحبه، وقد بلغ من ثقته بالقتل أنه تمنى واحداً من أصحابه سماه (حرباً) وفي الأغاني: "مَن مُبْلِغٌ جِذْمِي"(٢)، يريد: عشيرته، فجِذْمُ الشيء أصله(٣). وباء الإلصاق دليل قرب هذا القتل، أراد أن القتل قريب منه قرب الشيئين الملتصقين من بعضهما، شبّه مطلق ملازمة القتل له وقربه منه بمطلق التلازم بين شيئين ملتصقين، ثُمَّ استعير الباء من جزئي من جزئيات المشبّه به للمشبّه على سبيل الاستعارة التبعية في الحرف، ولو أراد أصل المعنى لقال: مَن مبلغٌ حرباً أني مَقْتُوْلْ. واسم المفعول دليل قهره (مَقْتُوْلْ)، لا حيلة له للتفلت من القوّة التي فاقته في العدد مع غربته وانفراده عن صحبه الذين يعاونونه في النهب والدفاع. والتمني

(١) يراجع الأغاني: ج٢٠/٢٤٨، السُّلَيْك بن السُّلَكَة أخباره وشعره: ص٦٣، ٦٤

(٢) الأغاني: ج٢٠/٢٤٨.

(٣) يراجع لسان العرب: ج١٢/٨٨ (ج ذ م).

دليل حبه للحياة وتعلقه بها، وقد ظهر هذا بعد ذلك، وبدأه بالحديث عن المال:

يَا رُبَّ نَهْبٍ قَدْ حَوَيْتُ عُثْكُوْلْ

تعجب من كثرة نهابه التي شبهها بالعثكول في كثرتها، و"العُثْكُول والعِثْكال: الشِّمْراخ، وما هو عَلَيْهِ البُسْر مِنْ عِيدان الكِباسة، وَهُوَ فِي النَّخْلِ بِمَنْزِلَةِ العُنقود مِنَ الكَرْم"(١)، تعجب بالنداء، ونكّر النهاب بعد (رُبَّ)؛ ليسجل كثرتها، وأكّد حصوله عليها واستقرارها عنده بحرف التحقيق (قَدْ حَوَيْتُ)، وفصل بين المشبّه والمشبّه به بحرف التحقيق والفعل زيادة في التأكيد، ولو جاء الكلام على الأصل لقيل: يَا رُبَّ نَهْبٍ عُثْكُول قَدْ حَوَيْتُ. وأسقط كلمة التشبيه ليظهر قوة الشبه، فالتشبيه مجمل مؤكّد، حذف منه الوجه والأداة، يخبر بهذا الاستعمال أن المشبّه (النهاب) هو المشبّه به (عذق النخلة) في الكثرة التي عناها. والكلام معناه التعجيب، كيف يعجز عن تخليص نفسه، وقد كان يفر قبل ذلك بنهابٍ لم تعجزه مع كثرتها؟! وفصلت جملة النداء (يَا رُبَّ نَهْبٍ قَدْ حَوَيْتُ عُثْكُوْلْ) عن الاستفهام قبلها (مَن مُبْلِغٌ حَرْباً بِأَنِّي مَقْتُولْ؟)؛ لأن استفهامه يثير التساؤل: لماذا تستعظم قتلك؟ فأجاب: يَا رُبَّ نَهْبٍ قَدْ حَوَيْتُ عُثْكُوْلْ، فبين الكلامين شبه كمال اتصال، الجملة الأولى تثير تساؤلاً في النفس، تصلح الجملة الثانية أن تكون جواباً عليه.

وَرُبَّ خِرْقٍ قَدْ تَرَكْتُ مَجْدُوْلْ

أخبر عن كثرة الفرسان الشجعان الذين قتلهم وتركهم صرعى، سجل باستعمال (رُبَّ) تلك الكثرة التي حرص على إظهارها، وكان يمكنه إضمار (رُبَّ)، ودلّ على الفتى القويّ كامل الخلقة بـ(خرق)؛ ليدلّ على تمام صحّته

(١) لسان العرب: ج١١/١٠ (ع ث ك ل).

وقوّته، والمادة في أصل الوضع تدلّ على مَزق الشَّيء وجَوْبه، فهو لتمام قوته خرق عادة أقرانه وفاقهم في الفتوة(١)، فإذا ذكر بعد ذلك أنه جدل ذلك الفتى، بمعنى صرعه(٢)، ظهرت قوة السُّلَيْك. وفصل بين الصفة والموصوف بـ(قَدْ تَرَكْتُ) تأكيداً لشجاعته، فقد أفاد بهذا أنه هو الذي أتى على الفتي الشجاع في أوّل الأمر وأنه تركه بعد أن أرداه، ولو جاء الكلام على الأصل لقيل: وَرُبَّ خِرْقٍ مَجْدُول قَدْ تَرَكْتُ. والتعجب واضح من الكلام، كيف يعجز عن مفاعلة من أحاطوا به وقد كان يصرع كثيراً من الفرسان الأقوياء؟!

وَرُبَّ زَوْجٍ قَدْ نَكَحْتُ عُطْبُوْلْ

يخبر عن كثرة النساء الحسناوات اللاتي تزوجهن، و"العُطْبولُ من النساء: الحسنةُ التامة"(٣). وفصل بين الصفة والموصوف بحرف التحقيق والفعل (قَدْ نَكَحْتُ) مع أنه يحدث عن زوجٍ؛ ليؤكد عزة النساء اللاتي تزوجهن وترفعهن، فلا يصل إليهن إلا بنكاح، ولو جاء الكلام على الأصل لقيل: وَرُبَّ زَوْجٍ عُطْبُول قَدْ نَكَحْتُ. ويبدو أنه شعر بحيلة النَّوار في إيقاعه، فتعجب، كيف أوقعت به وهي لا تعادل واحدةً من النساء الحسناوات الكثيرات اللاتي تزوجهن؟!

وَرُبَّ عَانٍ قَدْ فَكَكْتُ مَكْبُوْلْ

أكثر من تخليص غيره ممن وقعوا في الأسر، والعبارة كناية عن شجاعته وإقدامه، فهو الذي يتولى فكّ حبال الأسير بنفسه، كما يظهر في الإسناد (قَدْ فَكَكْتُ)، ولا يتأتى ذلك إلا إذا تجاوز الفرسان الذين أسروا هذا

---

(١) يراجع مقاييس اللغة: ج١٧٢/٢(خ ر ق)، لسان العرب: ج٧٤/١٠ (خ ر ق).
(٢) يراجع لسان العرب: ج١٠٤/١١ (ج د ل).
(٣) الصحاح: ج١٧٦٨/٥ (ع ط ب ل).

العاني وكبّلوه، وتناوبوا على حراسته حتى لا يدركه من يخلصه، فيرديهم السُّلَيْك ثُمَّ يفكّ قيود الأسير الذي أُحْكِمَ تقييدُه، كما تفيد صيغة اسم المفعول (مَكْبُولْ). والحديث عن تخليصه لغيره يلتقي برغبته فيمن يخلصه، وهذا يشعر بأن الكلام معناه التعجب، كأنه يقول: كيف أحاصر ولا يأتي من يخلصني، وقد فاقت أعداد من خلصتهم الحد؟!

وَرُبَّ وَادٍ قَدْ قَطَعْتُ مَشْبُوْلْ

وكما يجيد السُّلَيْك مفاعلة الفرسان ومعالجتهم بسيفه، تقوى نفسه على مصارعة الوحوش، في بريةٍ مأهولة بهم، وقد كثر مروره على أودية الأسود، ولا يكمل له الخروج منها إلا بمصارعة الوحوش وإردائهم. وقد أبان عن شدة شراستهم بوصف الوادي بأنه مشبول، والأشبال: صغار الأسود[1]، وهذا أدعى إلى شراسة الأسود عليه خوفاً على صغارها. يتعجب بهذا الكلام من عدم قدرته على قطع المكان الذي نزل به مع فرط شجاعته التي حملته في السابق على تجاوز وديان الأسود المشبولة بعد مصارعتها؟! والوصل بين الجمل الخمس من أول النداء للتوسط بين الكمالين مع عدم وجو المانع لاتفاق الجمل الخمس في الإنشائية لفظاً ومعنى.

(١) يراجع مقاييس اللغة: ج٣/٢٤٢ (ش ب ل).

رابعاً: الأبيات المنسوبة للسُّلَيْك بن السُّلَكَة وليست له

(١)

[من الطويل]

يَنَامُ بِإِحْدَى مُقْلَتَيْهِ وَيَتَّقِي ... بِأُخْرَى المَنَايَا مِنْ خِلَالِ المَسَالِكِ

إِذَا خَاطَ عَيْنَيْهِ كَرَى النَّومِ لَمْ يَزَلْ ... لَهُ كَالِئٌ مِنْ قَلْبِ شَيْحَانَ فَاتِكِ

وَيَجْعَلُ عَيْنَيْهِ رَبِيْئَةَ قَلْبِهِ ... إِلَى سَلَّةٍ مِنْ حَدِّ أَخْضَرَ بَاتِكِ

يهبُ هبوبَ الرِّيْحِ عِنْدَ انخِرَاقِهَا ... وَيَسْرِي عَلَى نَهْجِ النُّجُومِ الشَّوَابِكِ

تَكُلُّ مُتُوْنَ الصَّافِنَاتِ إِذَا جَرَتْ ... تُبَارِيْهِ أَوْ تَدْمَى نُسُور السَّنَابِكِ[١]

ترددت نسبة الأبيات بين السُّلَيْك بنِ السُّلَكَة[٢]، وتأبط شرًّا[٣]، وهي تناسب قصيدة لتأبط شرًّا يمدح بها شمس بن مالك، مطلعها:

إِنِّي لَمُهْدٍ مِنْ ثَنائِي فَقَاصِدٌ ... بِهِ لابْنِ عَمِّ الصِّدْقِ شُمْسِ بْنِ مالِكِ[١]

---

(١) السُّلَيْك بن السُّلَكَة أخباره وشعره: ص٧٢، ٧٣.

(٢) يراجع التيجَان في مُلوك حِمْيَرْ، لعبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري (ت٢١٣هـ)، مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، صنعاء - الجمهورية العربية اليمنية، الطبعة الأولى (١٣٤٧هـ): ص٢٥٢.

(٣) يراجع **الحيوان**، لأبي عثمان، عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الثانية (١٤٢٤هـ): ج٤٤٩/٦، **والصناعتين**، لأبي هلال، الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي - محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية – بيروت (١٤١٩هـ): ص٢٨٧، **والعقد الفريد**، لأبي عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بن حدير بن سالم، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى (١٤٠٤هـ): **ج١٠٧/١، ١٠٨، وزهر الآداب وثمر الألباب**، لأبي إسحاق، إبراهيم بن علي الحصري القيرواني (ت٤٥٣هـ)، تحقيق: دكتور/ يوسف على طويل ، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى (١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م): ج٢٨٣/١، **وسمط اللآلي في شرح أمالي القالي**، لأبي عبيد، عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي (ت ٤٨٧هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان: ج١٦٣/١، **وشرح ديوان الحماسة**، لأبي زكريا، يحيى بن علي بن محمد الشيبانيّ التبريزي (ت٥٠٢هـ)، دار القلم - بيروت:ج٢٣/١.

(٢)

[من المتقارب]

ونُبِّئْتُهَا حرَمَتْ قَومَهَا ... لتَنكحَ من مَعشَرٍ آخَرينَا
فإنَّ البَعيدَ ليُخطِينَهُ ... تلادَ القَريب منَ العَالَمينَا
وَلسنَ يُنازِلنَ يومَ الوَغَى ... ولا يتصدَّينَ للدَّارعينَا
فطُوفِي لتلْتَقِطِي مثلَنا ... وأُقسمُ بالله لا تفعلينَا
إذا الخيلُ أُكرهنَ في غمرةٍ ... من الموتِ يعْرَين فيها عرِينَا
نما مثلنا حين تَهفو الشَّمال ... ويَغلو القُتار على المُشترينَا
ولكنْ لعلَّكِ أنْ تَنكحي ... لئيمَ الركَّب خَبًّا بَطينَا
فَإِمَّا نَكَحْتِ فَلَا بالرِّفاء، ... إذا مَا نَكَحْتِ وَلَا بالبَنِينا
وزُوِّجْتِ أَشْمَطَ فِي غُرْبة، ... تُجَنُّ الحَلِيلَة مِنْهُ جُنونا
خَليلَ إماءٍ يُراوِحْنَهُ، ... وللمُحْصَناتِ ضَرُوباً مُهِينا
يُريكِ الكواكبَ نصفَ النَّهار ... وتلقَين من بغضِه الأقْوَرينَا
كأنَّكِ من بغضِهِ فاقدٌ ... تُرجِّع بعد حَنينٍ حَنينَا
مُعِدٌّ بلا زَلَّةٍ تَفعلين ... لظَهركِ بالظُّلم سَوطاً مَتينَا
كأَن المَساويكَ فِي شِدْقِه، ... إذا هُنَّ أُكرِهن، يَقلَعنَ طِينَا
وقَلَّبْتِ طَرْفَكِ فِي مارِدٍ، ... تَظَلُّ الحَمامُ عَلَيْهِ وُكُونا
فَأَبْعَدَكِ اللهُ مِنْ جَارَةٍ ... وَأَلْزَمَكِ اللهُ مَا تَكْرَهِيْنَا[٢]

==

(١) ديوان تأبط شراً وأخباره، تحقيق: علي ذو الفقار شاكر، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى (١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م): ص١٤٨.
(٢) السُّلَيْك بن السُّلَكَة أخباره وشعره: ص٧٤.

ترددت نسبة الأبيات بين السُّلَيْك بن السُّلَكَة[١]، وشَقِيق بْنِ السُّلَيْك، وَابْنِ أَخي زِرّ بن حُبَيْشٍ الْفَقِيهِ الْقَارِئِ[٢]، ورجلٍ من أهل الكوفة[٣]. والأبيات كما هو واضح في امرأةٍ خطبها الشاعر فردته، ومعانيها لا تناسب صعلوكاً فاتكاً عداءً يعيش في الفلاة.

(٢)

[من الطويل]

تَقُوْلُ ابْنَتِيْ إِنَّ ارْتِحَالَكَ وَاحِداً ... إِلَى الرَّوْعِ يَوماً تَارِكِي لَا أَبَالِيَا
ستَتْلَفُ رُوْحِي أَوْ سَأَجْمَعُ هَجْمَةً ... تَرَى ساقِيَيْها يَأْلَمَان التَرَاقِيَا
ذَرِيْنِّى مِنَ الإِشْفَاقِ أَوْ قَدِّمِي لَهَا ... مِنَ الحَدَثَانِ وَالمَنِيَّةِ وَاقِيَا[٤]

ترددت نسبة الأبيات بين السُّلَيْك بنِ السُّلَكَة، وسلامة بن جندل، وهي منسوبة في الشعر والشعراء لسلامة بن جندل[٥]، وهي في ديوانه[٦]، ومعانيها تدور حول الخروج للدفاع، وهي لا تناسب السُّلَيْك بن السُّلَكَة الذي يخرج للنهب والقتل لا للدفاع.

---

(١) يراجع الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهليين، للخالدين: أبي بكر محمد بن هاشم الخالدي (ت٣٨٠هـ)، وأبي عثمان سعيد بن هاشم الخالدي (ت٣٧١هـ)، تحقيق: الدكتور محمد علي دقة، وزارة الثقافة، الجمهورية العربية السورية (١٩٩٥م): ج٩٨/١.

(٢) يراجع لسان العرب: ج١٢٨/١٢ (ح ر م).

(٣) يراجع ذيل الأمالي والنوادر، لأبي علي، إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان: ج١١٥/٣، ١١٦.

(٤) السُّلَيْك بن السُّلَكَة أخباره وشعره: ص٧٧.

(٥) يراجع **الوَحشيَّات** (الحمَاسَة الصُّغرى)، لأبي تمام، حبيب بن أوس بن الحارث الطائي (ت٢٣١هـ)، تحقيق: عبد العزيز الميمني - محمود محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة: ص٨٩. **والشعر والشعراء**: ج٢٢٤/١.

(٦) يراجع ديوان سلامة بن جندل، تحقيق: دكتور/ فخر الدين قباوة، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الثانية (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م): ١٩٨، ١٩٧.

خاتمة

الحمد لله الفاتح بفضله أبواب الخير للطالبين، الكاشف بنوره سبل المعرفة للسالكين، والصلاة والسلام على سيدنا محمدٍ سراج أهل المعرفة، إمام أهل القرب والمكاشفة، وعلى آله الأطهار العارفين، وصحابته الأوفياء الطيبين، وبعد:

فقد تابعت ما كتب عن الصَّعَاليك في العصر الجاهليّ، ألتمس فيه تعليق العلماء على أشعارهم، فوجدت ما جادت به القرائح تحريراً لمعاني شواهد مصطفاة لتلك الدراسات، غابت عنها المقاييس البلاغية التي يكون بها دقة إصابة المعنى والكشف عن مراد الشاعر فيما قال. وارتجال المعنى من غير اعتماد المقاييس البلاغية طريق محفوفة بالمخاطر، قد تصيب في تحرير المعنى، وقد تخطئ، وهي في كل الأحوال لا تستقرّ على مراد الشاعر على الوجه الأتمّ، فكانت وجهتي لشعر أحد الصَّعَاليك، وهو السُّلَيْك بن السُّلَكَة، لدراسة شعره دراسة بلاغية، فاتضح من دراسة تراكيب شعره أن أبياته سيرة ذاتية لحياته، وكشاف دقيق لبيئة الصَّعَاليك.

وهذا يظهر من تعدد موضوعات شعره، ففيها حنينه لقومه ووفائه لهم مع استصغارهم له وتنكرهم له، وفيها كرمه وجوده على صحبه وتقديره للوفاء مع قسوة قلبه على أصحاب المال الذين أغار عليهم، وفيها حبه للحياة والهناء بالمرأة مع سواده وقبح هيئته. وقد تبين من مصاحبته لتحليل شعره اضطراب نفسه في حياةٍ قضاها في معاناة أبانت عنها معاني شعره، وقد وقفت من خلال دراستي لشعره على النتائج التالية:

١. أشعار السُّلَيْك حلقة تضم إلى سلسلة أشعار غيره من الصَّعَاليك كالشنفرى، وتأبط شرًّا، وعروة بن الورد، وعمرو بن براق، وهي تسهم

جميعاً في تصوير حياة الصَّعَاليك في بيئتهم البعيدة عن البيئات المستقرة.

٢. التردي الخلقي والحرمان الاجتماعي في لغة السُّلَيْك، حيث ظهرت اللغة قوية في شعره، في كل مستوياتها.

٣. خلت قصائد السُّلَيْك من المقدمات التي اشتهرت بها أشعار المتقدمين وسار عليها الشعراء؛ ومرجع ذلك أن المقدمة يسوقها الشاعر الذي ينشد لجمهورٍ يجذب بها سمعه ليسوق غرضه من الكلام، مع ارتباط مقدمته بغرضه، والسُّلَيْك لم ينل احترام معاصريه، فهو في نظرهم لصٌ فاتك، ولعلّ هذا سرّ غياب أكثر شعره.

٤. ظهر من التحليل صحة جعل (ما) بعد (أن – كأن) اسم موصولٍ، ليكون فيه إجمال يفصله ما بعده، كما في ضمير الشأن والقصة، وبهذا تخرج عن وصفها بالزيادة، مع تأكيد ملاحظة العلماء لها بأنها للتأكيد.

٥. كشف التحليل متابعة السُّلَيْك لمن تقدمه من الشعراء كامرئ القيس وطرفة بن العبد.

٦. ورد في الديوان العديد من الأبيات المفردة أمكن ضمها أثناء التحليل، وكشف الروابط بينها.

٧. تعرضت الدراسة للموازنة البلاغية للروايات المتعددة للأبيات؛ للوقوف على أنسب الروايات للسياق والمقام.

٨. لا يوجد في شعر السُّلَيْك ما يعرف الآن بالرمزية التي وقع فيها فقراء الموهبة الذين لا يحسنون القول، فقد أحاط السُّلَيْك استعماله للمجاز بالقرائن التي تساعد على فهم كلامه فهماً دقيقاً.

فهرس المراجع

١. أدب الكاتب، لأبي محمد، عبد الله بن مسلم بن قتيبة (٢١٣ – ٢٧٦هـ)، تحقيق: محمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان.

٢. الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهليين، للخالدين: أبي بكر محمد بن هاشم الخالدي (ت٣٨٠هـ)، وأبي عثمان سعيد بن هاشم الخالدي (ت٣٧١هـ)، تحقيق: الدكتور محمد علي دقة، وزارة الثقافة، الجمهورية العربية السورية (١٩٩٥م).

٣. الأصمعيات، تحقيق: أحمد محمد شاكر – عبد السلام هارون، دار المعارف – مصر.

٤. الأعلام، لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين (٢٠٠٢م).

٥. الأغاني، لأبي الفرج، علي بن الحسين الأصفهاني (ت٣٥٦هـ – ٩٧٦م)، تحقيق: دكتور/ إحسان عباس – دكتور/ إبراهيم السعافين – الأستاذ/ بكر عباس، دار صادر، بيروت – لبنان، الطبعة الثالثة (١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م).

٦. أمثال العرب، للمفضل بن محمد الضبي، قدم له وعلق عليه: الدكتور/ إحسان عباس، دار الرائد العربي الطبعة الأولى (١٤٠١هـ – ١٩٨١م).

٧. تاج العروس من جواهر القاموس، للسيد محمّد مرتضى الحسيني الزَّبيدي، مطبعة حكومة الكويت.

٨. التيجَان في مُلوك حِمْيَرْ، لعبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري (ت٢١٣هـ)، مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، صنعاء - الجمهورية العربية اليمنية، الطبعة الأولى (١٣٤٧هـ).

٩. جمهرة الأمثال، لأبي هلال العسكري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم – وعبد المجيد قطامش، دار الفكر، الطبعة الثانية (١٩٨٨م).

١٠. الجيم، لأبي عمرو، إسحاق بن مرّار الشيباني (ت٢٠٦هـ)، تحقيق: إبراهيم الإبياري، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة (١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤م).

١١. الحماسة البصرية، لعلي بن أبي الفرج بن الحسن (ت٦٥٩هـ)، تحقيق: مختار الدين أحمد، الناشر: عالم الكتب – بيروت.

١٢. الحيوان، لأبي عثمان، عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الثانية (١٤٢٤هـ).

١٣. ديوان الأخطل، تحقيق: مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، لبنان – بيروت، الطبعة الثانية (١٤١٤هـ - ١٩٩٤م).

١٤. ديوان امرئ القيس بن حجر بشرح أبي سعيد السكري، تحقيق: دكتور/ أنور عليان أبو سليم – دكتور/ محمد علي الشوابكة، مركز زايد للتراث والتاريخ، الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى (١٤٢١هـ - ٢٠٠١م).

١٥. ديوان بشار بن برد، تحقيق: السيد بدر الدين العلوي، دار الثقافة، بيروت – لبنان (١٩٨١م).

١٦. ديوان بشر بن أبي خازم، تحقيق: مجيد طراد، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى.

١٧. ديوان تأبط شراً وأخباره، تحقيق: علي ذو الفقار شاكر، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى (١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م).

١٨. ديوان خفاف بن ندبة، تحقيق: نوري حمودي القيسي، مطبعة المعارف، بغداد – العراق (١٩٦٨م).

١٩. ديوان سلامة بن جندل، تحقيق: دكتور/ فخر الدين قباوة، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الثانية (١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م).
٢٠. ديوان طرفة بن العبد، تحقيق: مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الثالثة (١٢٣هـ – ٢٠٠٢م).
٢١. ديوان لبيد بن ربيعة، تحقيق: الدكتور/ إحسان عباس، طبعة وزارة الإرشاد والأنباء الكويتية (١٩٦٢م).
٢٢. ذيل الأمالي والنوادر، لأبي علي، إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان.
٢٣. الزاهر في معاني كلمات الناس، لأبي بكر، محمد بن القاسم بن محمد بن بشار الأنباري (ت٣٢٨هـ)، تحقيق: د/ حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢م.
٢٤. زهر الآداب وثمر الألباب، لأبي إسحاق، إبراهيم بن علي الحصري القيرواني (ت٤٥٣هـ)، تحقيق: دكتور/ يوسف على طويل، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى (١٤١٧ هـ – ١٩٩٧م).
٢٥. سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، لجمال الدين بن نباتة المصري (٦٨٦ – ٧٦٨هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي.
٢٦. السُّلَيْك بن السلكة أخباره وشعره، دراسة وجمع وتحقيق: حميد آدم ثويني – كامل سعيد عواد، مطبعة العاني، بغداد – العراق، الطبعة الأولى (١٤٠٤هـ ١٩٨٤م).

٢٧. سمط اللآلي في شرح أمالي القالي، لأبي عبيد، عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي (ت٤٨٧هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.
٢٨. شرح المعلقات السبع، لأبي عبد الله الحسين بن أحمد الزوزني، الدار العالمية للنشر، بيروت – لبنان (١٩٩٣م).
٢٩. شرح ديوان الحماسة، لأبي زكريا، يحيى بن علي بن محمد الشيبانيّ التبريزي (ت٥٠٢هـ)، دار القلم – بيروت.
٣٠. شرح مقامات الحريري، لأبي العباس، أحمد بن عبد المؤمن القيسي الشريشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت (١٤١٣هـ – ١٩٩٢م).
٣١. شعر الصَّعَاليك منهجه وخصائصه، دكتور/عبد الحليم حفني، الهيئة العامة للكتاب (١٩٨٧م).
٣٢. الشعر والشعراء، لابن قتيبة، تحقيق: أحمد محمد شاكر، المكتبة التوفيقية، الطبعة الأولى (٢٠١٣م).
٣٣. الشعراء الصَّعَاليك في العصر الجاهلي، دكتور/ يوسف خليف، دار المعارف.
٣٤. الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية)، لإسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى (١٣٧٦هـ – ١٩٥٦م).
٣٥. الصناعتين، لأبي هلال، الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي – محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية – بيروت (١٤١٩هـ).

٣٦. العقد الفريد، لأبي عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بن حدير بن سالم، (ت ٣٢٨هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى (١٤٠٤هـ).
٣٧. الفاخر في الأمثال، للمفضل بن سلمة بن عاصم الضبي (ت٢٩١هـ)، تحقيق: محمد عثمان، دار الكتب العلمي، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى (٢٠١١م)
٣٨. الفروق اللغوية، لأبى هلال العسكري، مكتبة القدسي – القاهرة (١٣٥٣هـ).
٣٩. فقه اللغة وسر العربية، لأبي منصور، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي (ت٤٣٠هـ)، تحقيق: عمر حافظ سليم، شركة القدس للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى (١٤٣١هـ – ٢٠١٠م).
٤٠. الكامل في اللغة والأدب، لأبي العباس، محمد بن يزيد المبرد (ت ٢٨٥هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي – القاهرة، الطبعة الثالثة (١٤١٧هـ – ١٩٩٧م).
٤١. الكليات، لأبي البقاء، أيوب بن موسى الحسيني الكفوي (ت١٠٩٤هـ – ١٦٨٣م)، تحقيق: دكتور/عدنان درويش – محمد المصري، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الثانية (١٤١٩هـ – ١٩٩٨م).
٤٢. لباب الآداب، أسامة بن منقذ، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مكتبة السنة، القاهر، الطبعة الثانية (١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م)
٤٣. لسان العرب، لأبي الفضل، جمال الدين، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة (١٤١٤هـ).
٤٤. مجالس ثعلب، لأبي العباس، أحمد بن يحيى ثعلب (٢٠٠ –٢٩١هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار المعارف – مصر (١٩٦٠م).

٤٥. مجمع الأمثال، لأبي الفضل، أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم الميداني النيسابوري (ت٥١٨هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السنة المحمدية (١٣٧٤هـ ١٩٥٥م).
٤٦. المحكم والمحيط الأعظم، لأبي الحسن، علي بن إسماعيل بن سيده (ت٤٥٨هـ)، تحقيق: دكتور/ عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى (١٤٢١ هـ – ٢٠٠٠م).
٤٧. مختار الأغاني في الأخبار والتهاني، لابن منظور، محمد بن مكرم (٦٣٠– ٧١١هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي – القاهرة (١٣٨٥هـ – ١٩٦٥م).
٤٨. المستقصى في أمثال العرب، لأبي القاسم، محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري (ت٥٣٨هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت، الثانية (١٩٨٧م).
٤٩. معجم البلدان، لشهاب الدين، أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، دار صادر – بيروت (١٣٩٧هـ – ١٩٧٧م).
٥٠. معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، لأبي عبيد، عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي، تحقيق: د/جمال طلبة، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى (١٤١٨هـ – ١٩٩٨م).
٥١. مقاييس اللغة، لأبي الحسين، أحمد بن فارِس بن زكَرِيّا، تحقيق: عبد السَّلام محمد هَارُون، طبعة دار الفكر (١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م).
٥٢. المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وأنسابهم وبعض شعرهم، لأبي القاسم، الحسن بن بشر الآمدي (ت٣٧٠هـ)، دار الجيل، بيروت – لبنان، (١٤١١هـ – ١٩٩١م).

٥٣. النبات والشجر، لأبي سعيد، عبد الملك بن قُرَيب، المشهور بالأصمعي، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، الطبعة الثانية (١٩٠٨م).
٥٤. نقد الشعر، لقدامة بن جعفر، تحقيق: د/ محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.
٥٥. الوَحشيَّات (الحمَاسَة الصُّغرى)، لأبي تمام، حبيب بن أوس بن الحارث الطائي (ت٢٣١هـ)، تحقيق: عبد العزيز الميمني – محمود محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة.

فهرس الموضوعات

العنوان
مقدمة
أولاً: حديث السُّلَيْك عن نفسه:
(١) وفاؤه لقومه وإنذارهم من غزو بكر بن وائل
(٢) وفاء السُّلَيْك لصحبه
(٣) تصوير شجاعته وإقدامه
(أ) هجومه على بني كنانة
(ب) دفاعه عن النهاب بخطمة
(٤) رعاية السُّلَيْك لأصحابه
ثانياً: حديث السُّلَيْك عن الإغارة:
(١) العزم على الإغارة والذعر:
(أ) توعد وادٍ باليمن بين جأشٍ ومأرب
(ب) توعد خثعم بالقتال
(٢) إغارة السُّلَيْك على إبلٍ بمراد
(٣) وصف الفرس عند الانطلاق إلى الإغارة
(٤) أثر طول الرحلة على فرسه
(٥) وصف خيول أصحابه في طريقها للإغارة
(٦) إغارة السُّلَيْك على حي بني شيبان
(٧) وصف خبرة الخيول
(٨) الانطلاق للإغارة
(٩) كيفية معرفة الغنائم

ثالثاً: حديث السُّلَيْك عن المرأة:
(١) الغزل بنشيبة
(٢) هزؤ أمامة من هيئته
(٣) وصف فم محبوبته
(٤) إغاثة فكيهة له
(٥) رحيل المرأة
(٦) كثرة النساء الذميمات في بيئة الصَّعَاليك
(٧) إيقاع النَّوار به
رابعاً: الأبيات المنسوبة للسُّلَيْك بن السلكة وليست له
خاتمة
فهرس المراجع
فهرس الموضوعات